PARIS'S LUSCIOUS

فاتنة باريس

رواية

جرمين راموس

فاتنة باريس

فاتنة باريس
Paris's Luscious

by:

المؤلف

جرمين راموس

الطبعة الأولى، لبنان/ كندا، 2016
First Edition, Lebanon/Canada, 2016

OPUS PUBLISHERS
56 Laurel Cres. London. Ontario. Canada
Tel: +2266783972
N6H 4W7
opuspublishers@hotmail.com

لبنان . بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978-1-988150-21-5

مكتبة ٢٨٧

أشهر غانيات التاريخ

نينون دي لانكلو
فاتنة باريس

جرمين راموس

www.daralrafidain.com

OPUS PUBLISHERS

مكسه ٢٨٧

أوائل الألم

*

قالت مدام دي لانكلو التي كانت ترتدي ثياباً قاتمة وتجلس على مقعد ذي متّكأ خشن:

ـ اقتربي يا جان!

وكان صوتها حائراً وكأن بها اضطراباً.

فتقدّمت الفتاة التي كانت قد دخلت الغرفة، وهي صبيّة في الرابعة عشرة من عمرها، طويلة، ممشوقة، وجهها محاط بشعر غزير كستنائي يتدلى على كتفيها، وعيناها الرائعتان كانتا تشعّان ذكاءً، وفمها صغير وحلو.

وفي اقترابها من أمّها رأت شحوب وجهها وآثار الدمع في عينيها المحمرّتين، ولمحت عند هذه المرأة العبوس التي كانت دائماً سيّدة نفسها، دلائل اضطراب ظاهر يخيفها، فقالت لها:

ـ ما بك يا أماه؟ هل حدث شيء؟

ـ يا طفلتي المسكينة، هيّئي نفسك للمصيبة الكبيرة.

ـ أبي أوّاه! يا للسماء، أبي! هل مات؟

فهزّت مدام لانكلو رأسها، وكان وجهها أصفراً حتّى أنها أفزعت ابنتها المتطلعة للمرح والحياة، وقالت:

ـ أبوك لم يمت يا جان، ويجب أن تتأسّفي لأنه ارتكب جريمة.

فصاحت البنت مندهشة:

ـ جريمة؟ أبي ارتكب جريمة؟ مستحيل. أبي شجاع، أبي شريف، بل هو الشرف نفسه!

فردّدت مدام دي لانكلو بمرارة تقول:

ـ أهو الشرف نفسه؟!

وراحت جان تتسمّع إلى طقّات حبّات المسبحة التي كانت تهتزّ على ركبتي أمها. وقالت الأم:

ـ يجب ألّا أثقل عليه، يا جان! فهذا ليس من المسيحية في شيء. ونفسك البريئة يجب أن لا تلمّ بكل الفظاعات الماضية التي ارتكبها! ولكن ليس باستطاعتي أن أخفي عنك جريمته الأخيرة... لقد قتل رجلاً يكرهه.

ـ و... ما اسم هذا الرجل؟

ـ لويس دي شابان، قائد سلاح الملك، ووزير الدولة... وهو شخصية كبيرة...

ـ شخصية هائلة! لقد صادفته مرة عندما كنت مع أبي... لقد كان بشعاً، مبتذلاً بالرغم من ثيابه الحريرية والتخاريم الدقيقة التي كانت تلفّ عنقه. وكم كانت سيماؤه تدل على الإنحطاط! آه! لقد عاينته جيداً، لأن أبي

قال لي: « ها هو عدوّي الأكبر!» كان له عينان جاحظتان، وأنف معقوف، وشفتان ضخمتان منفرجتان تحت شارب مرفوع، وذقن مضحكة!

ـ ولكن، هل كان عليه أن يقتله لبشاعته، يا ابنتي؟ وماذا يمكن أن تنسبيه لجمال الوجه! فلو كان أبوك صالحاً وبشعاً، لما غرقنا الآن في الخجل والإثم. قالت الإبنة:

ـ ولكن أظنّه لم يقتل هذا الرجل بدون معركة! لا بدّ أنهما اعتركا؟

ـ لقد أثبتوا أن السيد دي لانكلو انقضّ على عدوّه عندما كان خارجاً من سفارة فينيسيا في شارع سان جيل. ذلك أن «دي شابان» كان أيضاً قائد مدفعيّة فينيسيا. وبدون أن يسمح له بالوقت الكافي للدفاع عن نفسه، جرّده من سيفه!

فسالت دمع جان وتنهّدت تقول:

ـ إلهي! إن الحقد جعله مجنوناً! وأين هو؟ هل أوقفوه؟

ـ لا، لقد هرب على حصان. ترك باريس... وحتماً سيتوجّه للإلتجاء لألمانيا. اسمعي يا جان، لقد تعذّبت كثيراً من أجله. لكن هذه التجربة الأخيرة قاسية جداً. أنا أطلب من الله أن يعطيني الشجاعة لاحتمالها...

واختنق صوتها بالدموع، وراحت يداها تحرّكان المسبحة التي أخذت حبّاتها تطقطق من جديد. وجلست جان على ركبتيها بالقرب منها، محطّمة. لقد كانت تعبد والدها. وتفكيرها بفقدانه يجعلها كالضائعة. كان دائماً بالنسبة إليها مثاليّاً، وصديقاً رائعاً ودليلاً ذكيّاً.كان مرحاً، فتح لها أبواب الحياة على مصراعيها. ساعدها لأن تذوب لطفاً وأملاً.. آه! كيف

يمكن العيش بدونه؟ وأسندت جان جبهتها إلى ركبتي أمّها وأجهشت بالبكاء. فأراحت مدام دي لانكلو يدها على شعر ابنتها الناعم، وحتى تسيطر على ألمها راحت في صلاة صامتة.

كانت عيناها تجولان في أنحاء غرفتها التي لم يكن لها حق التصرف بها إلا بالإسم، وحيث كانت تبكي فيها كثيراً بسبب هذا الزوج المستبدّ واللامبالي. كانت إباحيّته ومجونه وتفتيشه عن النساء، تصدمها، لا بل ترعبها! ومع ذلك أحبّته بكلّ انحرافه الساذج الذي كان هو جدّ متعب منه... أوه! إنه ليس بينهما ذكريات شهوانية! فهي لم تكن واحدة من الزوجات اللواتي كنّ معشوقات.

ـ ماذا يمكننا أن نضع مع أمرأة متسلّحة دائماً بمسبحتها ومتذرّعة بالماء المقدّس؟ كان يقول ذلك دائماً بضحكته الغريبة. بسببه ذاقت كل شيء: الخيانة، والإهمال، وما إليهما. كان لا يبالي بكل ما تفعله، وكان كلّ شيء فيها يثير حنقه. كان يسخر من رزانتها ومن فضيلتها ومنطقها الضيّق وإيمانها. وحتّى أنّه أخذ منها ابنتها التي كانت تدلّلها. وكيف استطاعت طفلة أن تصبر على فساد هذا الشيطان؟ ألأنّ هنري دي لانكلو كان قويّاً وخبيثاً مثل لوسيفروس؟!

وفكّرت مدام دي لانكلو تقول:

ـ الآن، سأعيدها إلى حظيرة الله! لم يعد لها الآن سواي! آه لو أنّها أحبّت الدخول للدير، إذن لتخلّصت من مخاطر هذا العالم المحزن! ولاستطاعت أن تنجو وأن تكفّر عن أخطاء أبيها! ونظرت إلى ابنتها تقول:

ـ انهضي يا طفلتي. لن يتخلّى الله عنّا. سنذهب الآن للكنيسة، علينا أن نصلّي كثيراً.

وتنهّدت جان ونهضت والدموع ما زالت تنحدر على خدّيها، دموع طفل صافية. وكان لجان ميّزة هي أن تبكي بدون أن يؤثّر البكاء على جمالها.

وفي اضطرابها أرادت أن تحبس نفسها في غرفتها مع حزنها. لم تكن أبداً كأمّها: فالكنيسة لا تبعث في نفسها عزاءً.

ـ جان أنت تعجبينني بتغطيتك عنقك هكذا. أبوك يحبّذ دائماً تعرّي العنق الفاضح... أمّا أنا فأقول إن المرأة تفقد كثيراً من حيائها الطبيعي بهذه الطريقة القذرة. فقالت جان:

ـ آه! يا أمي! كيف يمكنك أن تهتمي بهذه الثانويات في لحظة كهذه؟!

ـ الحياء ليس ثانوياً بالنسبة للمرأة! واليوم الذي تفقد فيه حياءها تفقد نفسها! لنذهب للصلاة من أجل والدك، يا ابنتي!

انتظار

*

كانت الصغيرة جان دي لانكلو، التي يناديها الجميع، عدا أمها، للتحبّب بـ«نينون»، امرأة بفكرها وبقلبها، وجدّ متيقّظة للحياة! كان والدها ضابطاً شجاعاً متهوّراً في شجاعته وكثير الذكاء. وقد أنشأها على بغض الرياء والتصنّع، وعلّمها قراءة الفيلسوف «مونتيني». وهذا الأبيقراطي الفاجر ـ أبوها ـ وجد فيها خير تلميذة له. فكان متحمّساً لأن يثقّفها حسب ذوقه الخاص، بينما كانت زوجته مدام دي لانكلو تحاول عبثاً أن تحميها منه بأخذها إلى الكنيسة كلّما استطاعت. لكن الصبيّة كانت تمسك بدل كتاب قدّاس قصّة حب، أو ديوان شعر!

وتعلّمت «نينون» مع الفلسفة والعلوم، اللغتين الإيطالية والإسبانية، ولكنها تعلّمت خصوصاً أن تفكّر بحكمة حتى لا تصبح أبداً متغرطسة ـ لأنها على السواء تبغض المثقّفات والحمقاوات – وكان السيد دي لانكلو يشجّعها أبداً على التدلّ والتغنّج. وكان يردّد على مسمعيها هذه الأقوال:

ـ قوّة المرأة وحجّة وجوده، هما في أن تعجب الجميع. عليها أن تملك اللطف والعذوبة، والجاذبية التي هي أهمّ بكثير من الجمال!

وحتّى ينمّي جاذبيّتها، أجبرها أن تتعلّم الموسيقى والشعر. فهو نفسه يلعب على القيثار بمهارة، ويغنّي الشعر بصوت رائع. وكان فرحاً بأن يجد في ابنته ميوله وصفاته ذاتها. فقد تعلّمت نينون بسرعة كيفية التعبير على آلتها، بحساسية مؤثّرة، وكانت تغنّي أشعار الغرام بصوت يكاد يأخذ القلب.

وأراد لها أبوها أن ترقص بكمال، فأعطاها دروساً خاصّة في الرقص حتى برعت فيه، وخصوصاً في رقصة «الساراباند»، بالرغم من اعتراضات أمّها. وكل هذه الأمور جعلت من نينون كائناً فريداً مدهشاً تحمل حتى الكمال كلّ الصفات الرائعة للمرأة.

كانت نينون تفهم الأمور بسرعة، وكانت تملك في نفسها السعادة والحب المجهول.

وقد لاحظت غياب والدها المتكرّر عن البيت، وتنهّدات أمها، والأشياء غير المألوفة بالنسبة لها، وأدركت أنه كان لهنري دي لانكلو عشيقة يعبدها تدعى لو كريس دي كوج وهي امرأة محام صغير ذي تصرّفات مريبة يدعى جان دي ريبرول. والذي كانت تستغربه نينون، هو أن يكون رجل ذكي مثل والدها بحاجة لأن يشرب ويغنّي ويحب، قد تمكّن من أن يتزوّج بامرأة عبوس تعيش على هامش الحياة كأمّها! ومع أن نينون تحترم أمها وتحبها أيضاً، فقد كانت تجدها أكثر نساء العالم جلباً للملل والسأم. فهي لم تكن تتحدّث بغير الواجب قائلة لها:

ـ الحياة ما هي إلا تجربة، يا جان، فيجب أن تبتعدي عن الفرح والمتعة، خصوصاً الشهوة فهي أبشع الخطايا!

بينما هنري دي لانكلو كان يقول لها:

ـ نينون، احفظي هذا جيّداً: هدف الحياة الوحيد هو السعادة! يجب أن نعيش اليوم بملئه. كل فنّ هو شهوة، وستعلمين غداً أن الحب هو الفن الأسمى...

وكان واضحاً أن هنري دي لانكلو بحاجة في حياته العاطفيّة إلى غير امرأته العابسة!

وقد رأت جان، أكثر من مرة، لو كويس دي كوج هذه. فهي جميلة وسمراء مغرية، تركها زوجها في باريس بعد أشهر قليلة من زواجهما ليلتحق في «بيريغور» بالكونت دي بورداي، حيث كان يشتغل كسكرتيره الخاص. فحلّ هنري دي لانكلو محلّه بجانبها، فكانا يفترقان أقل ما يمكن، وملتقاهما كان في شارع «سانت أناستازيا» في مسكن خادمة هي فرانسواز دي شارم. ولم يكن يهمّهما أحد، فهنري كان دائماً مرحاً، ضاحكاً، خفيفاً وكأنّ هذه الحياة الكاملة لا تنتهي!

لكن هذه الحالة انتهت بعد مضيّ سنتسن، أي عند رجوع «ريبرول» إلى باريس. ولم تكن نينون قد علمت برجوع الزوج ولكنها فطنت إلى ذلك من مزاج أبيها المتغيّر. وفي قصر العدل قدّمت شكوى أقامها المحامي ضد الزوجة وضد عشيقها، وتتابعت بعد ذلك الملاحقات القضائيّة والجلسات والشهود وجميع المضايقات التي أرادها «ريبرول» الذي كان يسنده الكونت «دي شابان». ولقد وصلت القضيّة إلى حدّ دفع المحامي «ريبرول» إلى محاولة قتل دي لانكلو بواسطة بعض المأجورين. وهكذا كانت نينون ترى دائماً أباها يخرج متسلّحاً بالسيف والخنجر وبغدّارة محشوّة، وكان ذلك يرضي أهواءها الرومنطيقيّة العنيفة.

وككل الأبناء الذين يعجبون بآبائهم، كانت نينون تفكّر بأن أحداً لا يستطيع أن يقاومه، لأنه ذكي وقوي وشجاع. وكانت تصغي له بلذّة عندما كان يقول:

ـ لقد التقيت بواحدٍ سخيف من معارفي، اسمه بوندونيير، يحمل سيفه بيده ووراءه عصبة على شاكلته ينتظرونني أمام أوتيل «فيتري». ثم سمعتهم يقولون: «ها هو» عندما حاذيت زاوية الشارع... لقد كانوا إذن ينتظرونني بدون شكّ!

فسألته نينون وقلبها يخفق قائلة: وماذا فعلت يا أبي؟

ـ وماذا باستطاعتي أن أعمل؟ لقد شهرت سيفي وتقدّمت نحو هؤلاء الشجعان الذين يتجمّعون سبعة أو ثمانية لمقابل رجل فرد! وقلت لهم: «إذن، أنتم تنتظروني؟ من مِن هؤلاء السادة يودّ أن يموت؟» كنت أقول ذلك بصوت عال وواضح، فأطّلت بضعة رؤوس عند ذاك من الشبابيك، فقلت: «إذن يا بونودونيير، سيكون لك هذا الشرف! تقدّم بدلاً من أن تتراجع! هل أخيفك؟ ولكن الصعاليك تركوني خوفاً من أن يكونوا قد شوهدوا أو عرفوا!

ـ ولكن لماذا كانوا يريدون قتلك؟ ماذا صنعتَ لهم؟

ـ لهم شخصياً، لا شيء! كانوا مأجورين لواحدٍ يريد قتلي وكان هو معهم، ولكنه اختبأ خلفهم...

ففهمن نينون أن ذلك الشخص إنما هو «ريبرول» نفسه الذي يريد أن يتخلّص من خصمه بالطرق السريعة. فتوسّلت قائلةً له: أرجوك يا والدي، كن حكيماً.

ـ يجب أن يكون الإنسان أحياناً حكيماً، يا نينون. وأنا أفكر بأن الطيبة المتواصلة ليست إلّا ضعفاً. يجب أن تردّ الضربة بالضربة.

كان يريد أن يردّ الضربة بالضربة على طريقته فلطم ذات يوم نجاراً متطفّلاً، وضرب بصفحة سيفه رأس ثرثار آخر ضربات عديدة، وأدّب بيده وبقضيبه فتاة اسمها «ماري موجان» معروفة لدى الجميع كأخسّ وأوقح امرأة في المحلة، وقد سمحت لنفسها بأن تختلق مئة أكذوبة عليه وعلى صديقته لوكريس، حتى أنّها أودت به إلى السجن، لأن «ماري موجان» كشفت عن ازرقاق الضربات في جسدها بلا حياء أمام الشرطة.

وعندما كان أبوها في السجن عرفت نينون بذلك، كما كانت تعرف كلّ شيء بينما أمّها مطمئنة إلى سذاجتها وغباوتها وبعدها عن هذه القصّة الغرامية وعنفها.

وبعد محاولة الإغتيال علم هنري دي لانكلو أن «شابان» هو المحرّض على ذلك، فلم يعد يحلم إلا أن يسخر لنفسه من هذا القائد الخطر. وها هو الآن شريد بعد أن قتله في غرّة حقدٍ أهوج! والآن، ونينون وحدها في غرفتها، استسلمت ليأسها وتخيّلت والدها هارباً على ظهر حصان هائماً على الطرق، ملتفّاً بمعطفه الكبير، وحيداً وملاحَقاً دون شكّ... هل يستطيع الإفلات؟ أوه! إنها تحبه ولا تستطيع أن تقاضيه. إذا قتل «شابان» فلأن ذلك الوغد يستحق القتل!

سيكون عندها وقت طويل لتستطيع وعي الأسباب التي دفعت أباها، الفيلسوف الأبيقراطيّ المحبوب، نحو فعل هكذا، نحو فعلٍ يكاد يناقض ديكتاتوريّة اللذّة التي نصّب نفسه عليها.

ولكن ماذا ستصبح بدونه؟ ستكون بحاجة أكثر منها بأي وقت مضى لنصائحه وتجاربه. أيمكنُ ألّا تراه بعد اليوم؟ وألّا تسمع وقع حوافر حصانه في الشارع، وصوته الحادّ المرح وهو يناديها: «أين أنت يا نينون؟...»

ذلك أنه كان يحب دائماً، حينما يصل إلى هذا البيت، حيث خلقت زوجته جوّاً أقرب إلى الدير منه إلى المنزل، أن يرى ابتسامة ابنته ونظرتها الممتعة والحلوة، حيث تشعّ الفرحة من لقائها.

متى سيعود أبي؟ لن أتعزّى أبداً. أبي يا أبي، أوّاه، لو تعلم كم أنا أحبّك!

ولم تأتها فكرة الصلاة من أجله، ولكنّها أقسمت قائلة: أبي، سأكون تلك التي تمنّيتها دائماً سأكون أهلاً لثقتك، أهلاً لك! سأحاول أن أكون حرّة التفكير وقوية كما كنت أنت، وبدون رياء! وبالرغم من كلّ ذلك سأبقى ابنتك...

وأجهشت في البكاء لأنها لم تكن يومذاك أكثر من مراهقة صغيرة غاضبة وضائعة.

العشيق الأول

*

عرفت نينون إذن أسابيع من الوحدة القاسية. فلقد كانت الفضيحة منتشرة في حيّ «سان ـ جان ـ ادن ـ جراف» حيث كان آل لانكلو معروفين من الجميع. وأصبحت الزيارات بين هؤلاء وبين غيرهم نادرة جداً. وكانوا يتوقّعون بين يوم وآخر خبر القبض على القاتل...

كانت جنازة «شابان» فخمة. ولكن الذين تأسّفوا عليه كانوا قليلين، وهكذا نُسي بعد مضي عدّة أسابيع لا غير! واختفى القاتل كالظّل، وافتقد أصدقاؤه مرحه وسخريته وعشرته المحبّبة.

كانت الزوجة والإبنة تفكّران بالهارب وحيدتين في المنزل العابس الصامت الكئيب، وتحدّثت مدام دي لانكلو عن زوجها كثيراً، ولكن في نغم كان يثير الإبنة دائماً، كقولها لها ذات يومٍ:

ـ أبوك يستحقّ المنفى يا جان، والسماء عاقبته على آثامه وتجديفه. وإنه لعقاب عادل! وعلينا أن نكفّر عن خطاياه بصلواتنا ودموعنا.

ولم تجب جان، لأن هذه الطريقة في معالجة موقفها من الحياة كانت تثير غيظها، فهي تعسة جداً لا تجرؤ على المناقشة وخصوصاً لأنها لا تريد

إزعاج والدتها، هذه الضحيّة المسكينة... وتحت تأثير وصيّة مدير إدارتها، أجبرت الأم ابنتها على حضور القدّاس في الكنيسة في أغلب الأحيان. وكانت تسرّ جداً حين ترى ابنتها إلى جانبها وتبارك السماء على ذلك. أمّا جان فقد تغيّرت بعض الشيء في حياتها العاديّة الصامتة.

لكن المرأة الساذجة ظلّت تجرح شعور ابنتها ووحدتها وتعبها، وكانت تظنّها في صلاة عندما تجدها وعيناها مرفوعتان للسماء بلا حراك، في حين لم تكن نينون تفكّر وتحلم إلا في مستقبلها المجهول وفي الحب. الحب الذي قاد أباها إلى هذا المصير. كانت تحاول أن تفهم ذلك، فقرأت «رابليه» سرّاً، وقرأت أقاصيص «مارغريت دي نافار» مكتشفة أصول الحب الشهواني وحب الذات في حكاياتها الواقعيّة. أما روايات «أورفيه» و«جوميرفيل» و«سانت سوزان» فكانت تصوّرُ حباً مختلفاً وغير حقيقي، بين كائنات كأنّها من لحم ودم. وإنّ هذا النوع من الحب سخيف بعض الأحيان، ولكنه يحتوي دائماً بعض السحر وبعض الجمال...

وجعلت نينون تأخذ هذه الكتب المحرّمة معها حتى إلى الكنيسة إذا هي عرفت أنّها ستمكث فيها طويلاً. وبينما كانت مدام دي لانكلو تغوص في الصلاة، كانت هي تقرأ وتفكر بكل ما تحتفظ لها الحياة في مستقبلها من مفاجآت.

وكانت أحياناً، والشهور تمرّ ببطء، تحدث بعض الاصطدامات بين الأم وابنتها. وفي أحد الأيام نادتها إحدى صديقاتها بـ«نينون» فصرخت الأم تقول:

ـ نينون لقب وثني، على الجميع مناداتها دائماً باسمها الحقيقي «جان».

ـ إن أبي كان يناديني بنينون، يا أماه. هذا الشيء كان يسرّه. وإنّي أريد أن أحتفظ بكل ما كان يسرّه. وعلى كل حال فأنا أرى هذا الاسم جميلاً وخفيفاً، وهو يناسبني تماماً.

ـ ستفعلين بالمستقبل كل ما يعجبك ويروق لك، واأسفاه! لكني سأناديك دائماً باسمك المسيحي.

ـ كما تشائين يا أماه!

وكان هناك موضوع آخر للمناقشة يفتح بابه الدلع والتدلّل، ذلك أن نينون كانت تحبّ التبرّج والتزيّن واختيار الثياب الزاهية المكشوفة، بينما كانت أمها تحاول دائماً إلباسها الثياب القاتمة والبشعة، كما تحاول أن تحرمها من الزينة وأن تفتح لها باب الدير في المستقبل.

لكن الإبنة كانت تعرف كيف تدافع عمّا تريد، بحجة أن دور المرأة في العالم هو أن تكون رحمة لهذا العالم ومتعة للناظرين!

كانت تتكلّم بمهارة وبتأكيد. بينما كانت مدام دي لانكلو المسكينة لا تستطيع أن تردّ على حجج ابنتها المنطقيّة بشيء ما، وكل ما كانت تردّده هو هذا القول:

ـ أفكارك خطرة. والرب يحب التواضع والمسكنة دائماً!

كل شيء كان يثير الأم ويفقدها توازنها. وهي لم تستطع أبداً إجبار نينون على تغطية عنقها المكشوف. ولم تستطع أن تمنعها من أن تمسك القيثار من جديد لتغنّي أغانياً للحب لا تدري أين تعلّمتها! وعلى هذا أخذت بعض الصالونات في باريس تدعوها، وكانت أمها مجبرة على مرافقتها

إلى الصالونات حيث ترقص كما لا يستطيع أحد غيرها أن يرقص، مما جعلها محطّ طلب الرجال الذي أُخذوا بهذه المراهقة الجذّابة.

وكانت أمها التقية تراقبها من بعيد وهي تنحني للفارس الذي يطلب أن يرافقها، وبالرغم من صلاتها التي لا تنتهي، فقد رأت أن الأب يعود من جديد في شخص ابنته!

ومن وقت لآخر كانت ترافق أمها إلى القاعات الملكية حيث الحفلات الرائعة. ولكنها كانت تهتم قبل كل شيء بما حولها! بالنساء بأثوابهنّ الفخمة وحمرة خدودهنّ وصدورهنّ المكشوفة، حيث كنّ يدخلن إلى الأماكن المقدّسة يحرسهنّ مرافقوهنّ من المعجبين والمحبّين. وكان هؤلاء يتهامسون ويضحكون طول الوقت، وكانت الكنيسة ملتقى المواعيد الكثيرة حيث الحركات الماجنة وقصاصات الأوراق تنتقل من يدٍ إلى أخرى...

وإذا أنّبتها أمّها على شرودها في الكنيسة وانصرافها عن الإهتمام بالقدّاس، كانت تدافع عن نفسها بقولها:

ـ ألا ترين يا أماه أن النساء والرجال لا يأتون إلى هنا إلا للّقاء والمغازلة؟ وإذا أردت المزيد فسأسمّي لك امرأة من معارفنا تلقّت الآن في حضنها قصاصة ورق...

ـ حقاً، أنا لا أدري كيف يمكن لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها ملاحظة أشياء مثل هذه؟ يجب أن تخجلي من نفسك يا جان.

إن مخيّلتك واسعة، وأنا لا أرى شيئاً من ذلك... ولو كنت مهتمّة بالله لما لاحظت مثل هذه الأمور!

ـ لكنّ الله وهبني عينين لأرى بهما يا أمي!

ـ أرجوك لا تجيبيني. إنّه لأمر متعب أن تكون الكلمة الأخيرة دائماً للبنت لا لأمّها!

وتسكت جان، وتتساءل في نفسها: أين هو إذن ذلك الأب اللطيف المحب الذي يحرّضها على السؤال بدلاً من أن يسكتها! ووقعت فضيحة في الكنيسة ذات يوم. وكان ذلك في عيد «الآلام». والكنيسة مزدحمة بالجمهور. وكان الكاهن يروي في مقاطع مؤثّرة آلام السيد المسيح وتضحياته وموته. وبينما كانت كلماته تنساب في أرجاء الكنيسة تستدرّ الدموع، ارتفع صوت فنّي واضح يقول:

ـ ولكن لماذا البكاء؟ و«ماذا يهمّ طالما أني أموت لأبعث من جديد»؟

وكان هذا المقطع الأخير دوراً في أغنية إسبانية عاطفية حديثة يردّدها الرجال عادة للحسان. وما كاد هذا الصوت يرتفع حتى استدارت الرؤوس كلها نحو نينون دي لانكلو التي أصبحت بلون الورد الأحمر، والتي فتحت عينيها على وسعهما بجرأة بريئة. لقد تكلّمت بصوت عال بالرغم منها، ناسية أي مكان هي فيه. أما أمّها فقد راحت ترتجف من الخجل عندما لمحت أعين المصلّين المندهشة تستقرّ على ابنتها...

لقد جعلت الأم من هذا الحادث مأساة حقيقية، وأجبرت نينون على الاعتراف بهذه الفعلة الشنيعة، وعلى التوبة والاستغفار، وعلى القبول بالدخول إلى الدير للتكفير!

ولم تستطع الابنة أن تتحمّل الأمر كثيراً، وكان جواب الكاهن الذي تولّى أمر هدايتها للأم التي تنتظر الرحمة: إن الشيطان أقرب إلى الدخول للدير من هذه الفتاة. وتابع قائلاً:

ـ زوّجيها، الزواج والأمومة والواجبات تعقّلها بلا شكّ. وهنا واجهت الأم مشكلة عويصة، لأن زواج نينون لن يكون سهلاً. فهي ابنة قاتل فارّ من وجه العدالة، ومع أن الأحداث في باريس تنسى بسرعة، إلّا أن تغيير الجيران والانتقال إلى حيّ آخر كانا أمرين واجبين.

هذا ما دفع مدام دي لانكلو إلى السكن مع ابنتها في شارع «الخيمات الثلاث» غير البعيد عن الساحة الملكيّة، وهو حيّ الأناقة في باريس، وهناك لا بدّ أن الناس لا يعرفون هنري دي لانكلو ومغامراته وحماقاته. ولذلك ستكون جان، بلا شكّ، أكثر استعداداً للاستقامة والمسلك الحسن.

وأخذت نينون بهذا الوسط الجديد. فالساحة الملكيّة كانت ملتقى ألمع الأسياد وألمع السيّدات، حيث تدور المغازلات حول أشجار الدردار الوارفة المزروعة في دوائر هندسيّة حسب الذوق الإيطالي. وكانت النساء الخفيفات يتنزهن أيضاً في الممرات ويحاولن إثارة الرغبات. وما الذي تفعله مشاهدات كهذه في قلب متفتحة للحياة! لا بدّ أن الحب كان مدار تفكيرها الوحيد. والزواج لم يكن أكثر من مصلحة في ذلك الوقت، وأية مصلحة تجتذب طالب الزواج منها؟ صحيح أنها في السادسة عشرة من عمرها، وأنها جذّابة وهاوية للمطالعات والدراسة، سريعة الاستعداد للمرح، مفكّرة، ومتألّقة حين تودّ افتتان الجمع بها ـ وهي تودّ ذلك دائماً ـ ولكن كل هذا لا يؤلّف رأسمالاً كافياً.

بالرغم من صغرها، كانت تنظر إلى العالم على حقيقته وبأقلّ ما يمكن من معتقدات أمها التي لا تملك أكثر من تجربة طفل، وكلّ همّها حينذاك أن تدع السوسن يتعربش على حيطان المنزل! لم تكن الأم، إذن، جديرة

بأن توجّه ابنتها. وتحت تأثير همّ زواجها، سمحت لها بمخالطة الشباب الذين لم يكن همّهم إدخال خاتم الخطبة في بنصرها بل اللعب الوقتي واكتساب قلبها الصغير. ونينون لم تكن صالحة للزواج، ولكنّها صالحة كمحبوبة وعشيقة. وتحيّرت نينون. وشعرت باستحالة اتّباع حياة غيرها من النساء، إذن ما العمل؟ الحب يناديها، وأحاسيسها تتفتّح مع رغباتها. وليس هنالك من يدلّها على مخاطر هذا الوضع، فالأم العمياء لم تكن لترى في كل ذلك إلا حرية ابنتها في اختيار واحد من هؤلاء المعجبين الحائمين حولها. وكانت تذهب إلى الكنيسة تصلّي للرب من أجل مساعدة ابنتها في الاختيار.

وقد اختارت نينون في الحقيقة... لا زوجاً.... بل عشيقاً! واختيارها هذا كان أسوأ اختيار.

كان ذلك هو شارل كلود دي بومون ـ فيكونت دي شاموزي. وكان هذا فاسقاً شهوانيّاً، سبّاقاً للملذّات واغتنام الفرص، وزبوناً «له قيمته» في الساحة الملكيّة. ولكنه كان يعرف كيف يتكلّم في المجتمع ويدلي بحججه أكثر من سائر المتحذلقين، وهو أوّل من خاطب مدام دي لانكلو قائلاً:

ـ سيّدتي، إذا استطعت أن أفوز بقلب ابنتك وأجعلها زوجتي فسأكون أكثر الرجال سعادة.

وصدّقت الأم المسكينة وعيناها مغمضتان، وسمحت له أن يكون الحامي الشرعي لابنتها من أصحاب المغامرات والأفاكين! وهي لم تطلب منه لقاء هذا أي ضمان ، لذلك لم يكن بوسعها أن تتلافى ما سيحدث...

وأظهر «سان إتيان» أمام هذه الفتاة من حبه بقدر ما أرادت، وكان يهيّء نفسه لمقابلتها وحيدة حيث يستطيع أن يمثّل لها أهواءه كما يشاء. وقد قال لها مرّة:

أحبّك أكثر ممّا أحب نفسي! أنا لا أريد زوجة سواك! أنا متأكّد من أنني سأقنع عائلتي بهذا الزواج، وسأعبدك طيلة حياتي!

وأصغت نينون مبتسمة مأخوذة، آه! كم هو لطيف ومخلص! وسمحت لنفسها بأن ترتاح بين ذراعيه وأن تذوق لذّة القبل. لكن عقلها لم يسمح بأن تعطيه كل شيء، فهي ما زالت تحتفظ بحياء العذارى. كان يرسل لها الزهور والهدايا الصغيرة، وخصوصاً الكلمات الرائعة التي كانت توافقها. ذلك لأنه كان مستعجلاً والوعود لا تكلّف كثيراً.

ـ قبل مضي ثلاثة أشهر ستكونين زوجتي، يا قلبي الحلو، لقد تحدّثت عنك أمام أحد أعمامي فشجّعني كثيراً... آه! إن أمي تعبدك، وسوف تكون هنا بعد أسابيع، وهي لا تخالف لي أمراً. فهي أيضاً ملاك، وأنا أحبها بقدر ما أحترمها!

كان يلعب على هذا الطراز بالحديث، ويقسم بأنه ما أحبّ امرأة قبلها، وأنّه سينذر نفسه للذهاب إلى الكنيسة مشياً على الأقدام إذا تمّ زواجهما. ولماذا لا تصدّقه؟ إن المرأة تصدّق دائماً ما يقوله الرجل الأول في حياتها.

كانت مستعجلة جداً، لأنها كانت شهوانية تريد أن تكون امرأة وأن تعرف الحب و«سان إتيان» كان يعجبها.

كانت تحرّم على نفسها أن تتمادى معه، وترفض طلبه دائماً.

ولكن لماذا الرفض طالما أنها ستكون عمّا قريب «فيكونتس دي شاموزي؟» ألا يجب أن تمنحه ثقتها به؟ الأكيد هو أنه يحبّها حتى الجنون، ومنْحُها نفسها سيسمو بهذا الحب بدلاً من أن ينقص من قدره!

وكان سان إتيان يسكن منزلاً قريباً من مسكنها، ولقد وعدته مرّة بملاقاته هناك أثناء ذهاب والدتها إلى الكنيسة. كانت شجاعتها في ما سبق، تخونها دائماً في آخر لحظة، فكانت أبداً تخلف بالموعد. ولكن اليوم الذي تغلّبت فيه جرأتها قد أتى، وعندما وصلت إلى بابه وهي ترتجف، لم تقرع الجرس لأن الباب كان قد فُتح وأطلّ منه سان إتيان الذي كان يترقبها من أمد طويل، وقال: « أخيراً، ها أنت هنا!». وسحبها من يدها إلى الداخل قبل أن تجيبه... وعندما تمكّنت من التفكير في نفسها بعد ذلك، كان الشر قد وقع، فإن نينون لم تعد عذراء!

ولم تتذوّق نينون حلاوة هذه المباغتة، وهي لم تستطع أن تخبره بذلك إذ كان في غاية السعادة. وعندما خرجت من هناك ورأسها مثقل بالأفكار لم يردّد لها وعوده كما كان يفعل كلّ مرة. في المساء حدّثتها أمها عن «سان إتيان» قالت:

ـ «هذا الشاب ألا يروق لك؟ ألا تفكّرين بأنه قد يكون زوجاً صالحاً؟...»

وجاوبت الفتاة ببطء وبشرود، قائلة: لا أدري يا أماه أنا لم أعرفه جيّداً...

فهي، بالرغم من صغرها، قد تكفّلت بنفسها أن تكتشف حقيقة هذا الرجل الذي منحته جسدها. وتابعت الأم تقول:

ـ أنا أحب حياءك يا ابنتي، فالزواج في الحقيقة ليس بالشيء الهيّن ويمكنه أحياناً أن يسبّب التعاسة للمرأة.

لقد تكلّمت عن تجربة، وتنهّدت!

إن نينون حزينة. وإنها لا تدري لأي سبب. هل يكون «سان إتيان» كاذباً؟ هذا الشيء يمكنها أن تدركه بسهولة حالما تلتقيه. ولكن هذا ليس كل شيء. فقد أصبح لها عشيق ـ عشيق؟! أيمكن أن يكون حدث ذلك؟! وإنها غير متأكّدة من حبّها له ومن اختيارها. كان في رأسها فكرة مسبقة عن الحب هي التي دفعتها إلى أن تفعل ما فعلت، وليس حبها له! ولماذا اختارته هو بالذات؟ كان هناك كثيرون غيره أجمَل منه! أيمكن أن يكون ذلك بسبب ميزة خاصة به كانت تعطيه قوّة لا تقاوم؟ ولكن الرغبة، هل هي كل الحب؟ هل هي تحب حقا «سان إتيان»؟ وفكّرت في نفسها تقول: إذا لم أقابله بعد الآن، فهل أموت من الحزن؟

وجاوبت نفسها بسرعة قائلة:

«طبعاً لا فأنا أعبد الحياة... مع «سان إتيان» أوبدونه، لا فرق. ولكني حتى الآن لا أريد أن أصدّق أنه كذب عليّ في مشاعره نحوي...»

وبعد أن اجتمعت بعشيقها عدّة مرّات عرفت أن الحب هو لعبة مبهجة لا غير بالنسبة له، وأصبحت اتّصالاته بها تأخذ طابعاً يفتقد التحدّث عن الزواج والمستقبل.

في ذات يوم عندما حملت إليه سؤالاً من أمّها حول هذا الموضوع، أجاب بخبث يقول:

ـ ولماذا نتزوّج يا عزيزتي؟ ما الذي سنكسبه من ذاك؟ يقال بأن الزواج يقتل الحب!

وكان الجواب كافياً لأن يقتل في نينون كل رغبة في التفكير بالزواج به، مستسلمة إلى مصيرها. ولم تقل كلمة واحدة، لكنها احتقرته، وأصبحت تتخلّف عن مواعيدها معه. فاندهش «سان إتيان» كثيراً، أيمكن أن تضحّي المرأة بعشيقها الذي منحته بكارتها بكل هذه السهولة؟ لا، عليه أن يكون هو البادىء بذلك. عليه أن يقهرها باقترايه من إحدى الفتيات الأخريات الأكثر جمالاً ومالاً

وراحت نينون تسائل نفسها قائلة:

«لكن ما الذي جعلني أحبه؟ هو فارغ تماماً. لا إيمان له ولا قدر... أين كانت عيناي إذن؟»

لكنها شعرت بالرغم من احتقارها له، بأنه لا يزال باستطاعته أن يمنحها المتعة، فقط لأنّه كان غرّاً وفاسقاً.

وبعد ذلك منحته نفسها كليّاً. فراح هو يصارحها بكل خباثاته ومغامراته حتى أنها صارت تكره قبلاته التي تثير سأمها. وعندما قالت له ذات يوم:

ـ هل تعلم بأني أنتظر طفلاً؟ وماذا ترانا سنفعل؟

حدّجها بنظرة ثابتة وبدون مبالاة. وبشيء من البرود غيّر طريقة جلوسه. وشعرت بأن سطلاً من الماء البارد صُبّ عليها. ثمّ ما لبث أن قال لها متهرّباً:

ـ ولكن عليّ أن أفكّر... معنا وقت طويل. ألم تفكّري أنت بحلّ ممكن؟ فقالت له بصرامة وحزم:

ـ ولا بأيّ حلّ غير الزواج!

ـ بالطبع، بالطبع، بالتأكيد... سنتكلّم في ذلك سنتكلّم بالطبع...

وعندما تركها مسرعاً لم يفكّر حتى بمعانقتها كعادته. وتأكّدت هي بأنها لن تراه بعد ذلك أبداً! وعندما أصبحت نينون وحيدة تمتمت تقول:

ـ يا حبي الأول، لقد كنت تجربة قاسية بالنسبة لي! ولكن لا بأس، فعلى الشخص الذي يريد أن يجابه الحياة بقوة أن يتقبّل هذه التجارب القاسية.

ولم تبكِ أبداً كما قد تفعل فتاة في مثل سنّها وفي مثل موقفها، وأعلنت لأمّها، تقول:

ـ لقد رفضت الزواج بـ«سان إتيان»، يا أماه. أخذت عليه عدّة أشياء لا تعجبني. فهو يشرب ويقامر...

ـ لقد كنت على حقّ بدون شك، مع أنني غالباً ما توسّمت خيراً وثقةً به.

ـ أنت قدّيسة يا أمّاه، أنت لا تلمحين الشر في مظهره الذي يتنكّر به. ألست قلقة من أجلي؟ أنا لست في موقف يسمح لي بإدارة حياتي كما يجب، لكني أفكّر على كل حال بمستقبل...

ـ آه، هذا حسن أن يكون عند المرء ثقة بنفسه! فليحفظك الله يا طفلتي.

ولم يتكلّما أبداً بعد ذلك على «سان إتيان»!

نينون وأمها

*

كانت نينون في بعض الأحيان تغرق في كتبها وموسيقاها وتجادل رفاقها ورفيقاتها في الأدب والشعر والموسيقى. فلقد كانت تملك بدون شكّ مواهب فنيّة، وكان الكثيرون يشجعونها في اللهو، فمضت في تنمية مواهبها بدون أنيهمها معرفة البعض لمغامراتها مع «سان إتيان»، ذلك أن البطل وجد موضوعاً جديداً يجعله يتحدّث عن «مواهبه»! ومنذ ذلك الحين والشبان يدورون حول نينون بقصد مراضاتها وكسب ودّها، وهي بلا شك كانت بحاجة إلى عشاق يفهمونها جيّداً.

وتردّدت قبل أن تقرّر الطريق الذي ستسير فيه. كانت تدرك، وهي الفتاة الرقيقة الذكيّة، بأن أحداً لن يطلبها للزواج. ما العمل إذن، ماذا ستصبح؟ كانت شبه خائفة من جرأة أفكارها!

وذات مرّة دخلت أمّها عليها، فقالت لأمها:

أماه، ما بك؟ لماذا عيناك حمراوان؟ هل تتألّمين يا أمي؟ فأجابت الأم المسكينة التي يلاحقها التعب والمشاكل كيفما مضى بها العمر، برغم صحّتها الضعيفة التي لا تتحمّل مزيداً من الهمّ، قائلة:

ـ أتألّم من الخجل يا ابنتي. يا جان، هل تودّين موتي؟

ـ أنا، يا أمي؟ ولماذا؟

ـ هذا الهدوء وهذه الهيئة المسكينة لن يخدعاني! لقد أخبروني بكلّ شيء عن حماقاتك...

ـ هل تريدين أن تجلسي يا أمّاه؟ وهل أستطيع أن أعرف على ما تتكلّمين؟

ـ أنت تعلمين جيّداً ماذا أعني. أنا أعرف بأنك و«سان إتيان»... آه، يا للسماء! أهذا الذي كان ينقصني فوق آلامي الماضية... وراحت تنتحب. وخفضت نينون رأسها، وقالت:

ـ الله شاهد عليّ يا أماه بأنني فعلت كل هذا لأنك...

ـ هكذا! أنت لا تنكرين إذن؟

ـ ولماذا أنكر طالما هو حقيقة؟ باستطاعتي أن أسكت، أن لا أقول شيئاً، لكنني لا أستطيع أن أكذب...

ـ أراك فخورة بعملك المنحطّ وبسفاهاتك، واأسفاه! أنت ابنة بلا شرف!

ـ أمي، هذه كلمة كبيرة من أجل شيء صغير!

ـ شيء صغير؟ أهو شيء صغير أن تتخلّي عن حياء جنسك وأن ترتكبي أسوأ الخطايا، وأن تسلّمي نفسك لأوّل قادم؟

ـ لم يكن الأول... لقد اخترته... كان يعجبني وكنت أعتقد بأنه يستحقّني! وقد أخطأت!

ـ على الأقل كان عليك أن تحمليه على الزواج...

ـ ولكن سان إتيان يا أمي لم يكن يفكّر أبداً في أن يتزوّجني! وعندما عرفته على حقيقته، لم يعد بإمكاني أن أتّخذه زوجاً لي ولو أعطيت العالم كلّه!

ـ الفتاة الت سمحت بأن يُنتهك شرفها، عليها شيء واحد وهو: أن تتزوّج منتهكها!

ـ حتى ولو كان المنتهك يستحقّ الإحتقار؟ أنا أؤكّد لك يا أمي، بأن أفكارك هي أفكار عصر مضى!

ـ بالطبع، لأنك تريدين أن تصوغي العالم حسب أهوائك لتكوني حرة في ترك الزمام لرغباتك. ولماذا لا تقولين إن على المرأة اتّخاذ دزّينة من العشّاق في وقت واحد؟

ـ في الحقيقة، لِمَ لا؟ فالرجال يفعلون ذلك ونحن نجده شيئاً طبيعياً.

ـ إخرسي! فمنطقك الشيطاني يثيرني، ولكن شئت أم ابيت سأجبرك من الآن فصاعداً على أن تكوني عاقلة ما دمت أنا حيّة...

ومنذ ذلك الحين جعلت مدام دي لانكلو تحرّم على ابنتها راحت ها، فكانت تتبعها إلى كل مكان إذا سمحت لها بالذهاب إليه وتجرها معها إلى الكنيسة كلّما ذهبت إليها.

وكان هذا فوق احتمال فتاة كنينون، حرّة متكبّرة. والتسلط عليها في هذه الطريقة راح يُهيّء في نفسها ثورة، فأمها لم تعلم أنها جاوزت الحدّ بما تفعل، وأن الإبنة لم تعد الآن في سن تلزمها فيه الطاعة!

إن تجربتها الأولى جعلت منها امرأة، وامرأة باستطاعتها أن تفهم الحب. وبالرغم من جهود مدام دي لانكلو، لم يترك الشبان الفتاة بسلام، بل راحوا يحيطونها دائماً مثل ذئاب جائعة. وتركت نينون نفسها تنساق مه أهوائها ومع مواعيدها الغرامية ووجدت ذلك مسليّاً تحت تأثير رقابة أمّها.

وعاشت بجوٍّ متواصلٍ من الرغبة، وكانت مضطربة دائماً. ومع مرور الأيام لم تعد تذكر من حياتها الشهوانيّة إلا الساعات المجنونة التي كانت تقضيها بين ذراعي «سان إتيان». وبالفعل، لم تعد تعجبها هذه المِتع السهلة والمقرفة... كانت تنظر إلى جميع المتنهّدين حولها، والمنتظرين سانحة منها، بقلّة اهتمام. ثم ما لبثت أن ميّزت منهم واحداً لم يكن رائعاً، ولكنه كان يعجبها، وهذا يكفي... لم يكن يهمها أبداً أن تأخذ زوجاً ولكن متعة عابرة.

كان اسمه «هنري دي لنسي» وهو فارس دي راريه من أورلبان، وكان هو أيضاً شهوانيّاً صريحاً، ومحباً للمغامرات مثل سيده «غاستان». وبين كل مستخدمي هذا السيد، لم يكن واحداً يفاخر برذائله وبانتصاراته مع النساء. وكان دي راريه هذا يتكلّم بمهارة ويكذب بطلاقة ولم يكن يملك قرشاً واحداً، ولكنه كان يرتب نفسه بحيث لم يكن يشعر بحاجة للمال.

وأحبت نينون وجهه اللطيف وعينيه السمراوين اللتين كان يعرف كيف يجعلهما رقيقتين ومضيئتين كعيني الطفل. كان لا يهتمّ بالآداب، وكان يحمل في نفسه حبّ الثورة الذي تتحمّس له الفتاة كثيراً!

وكانت مدام دي لانكلو تسير أكثر فأكثر نحو الضعف، ونحو المرض

الذي يلزمها الرقاد مدّة ساعات طويلة. كان هناك شرّ خفيّ يتأكّلها ويضعفها. ولم يكن الأطباء يعرفون تحديده بالضبط، ولذا لم تكن الأدوية بناجعة. وأصبحت تجبر ابنتها على أن تقضي بجانبها أكبر وقت ممكن طالبة منها أن تطرّز وأن تحدّثها أو تقرأ لها صلاة أو سِيَر القدّيسين.

وكانت نينون تطيعها لأنها تحبّ تلك الأم. فتقرأ لها بدون أن تفهم الكلمات التي تلفظها لأنها كانت مشغولة دائماً بـ«دي راريه» الذي كان يتنزّه تحت نوافذها ممنّياً نفسه بلقائها...

وكان صوتها الرتيب يجعل أمها تغفى سريعاً مطمئنّة لوجود ابنتها بجوارها. وفي الساعة التي تلمح فيها إغفاء أمها، كانت نينون تنهض بدون ضجّة وتنسحب بهدوء من الغرفة وتهرول نازلة على السلم، وتفتح الباب المطلّ على الشارع وتنادي «راريه» الذي يكون عند ذلك واقفاً يرقب حضورها عند أحد الأبواب المجاورة، فيسرع إليها ويشدّها بين ذراعيه دون أن يهتمّ بالعيون التي تراقبهما من وراء الستائر والزوايا، ويتعانقان في نهم وجوع، وتقول نينون وهي تختنق من الفرح:

ـ آه! كم كنت أنتظر قبلتك. فيجيبها بمثل هذا القول:

ـ وأنا كذلك لقد كنت أنتظرك منذ ساعتين تحت النافذة!

ولم يكن لديهما الوقت للكلام، ولم يكونا ليتعبا أبداً من النظر المتبادل ومن ارتماء كل منهما في حضن الآخر. وكانت مداعبتهما حارّة أبداً ومشتعلة.

وعند ذاك يأتيهما صوت ضعيف من فوق، وينتزعهما من ذهولهما. فتقول نينون:

ـ وداعاً... أمي بحاجة إلي... أنا صاعدة.

ـ ابقي قليلاً... بوسعها أن تنتظر...

ـ لا، إنها تتألم، وأنا لا أريد أبداً أن أغضبها.

ثم تحسّن قليلاً من هندامها بسرعة، وتمسّد شعرها وتُقبل على أمها. لكن أمها بنظرتها الثاقبة كانت تفهم كل شيء وكانت تسألها بصوت ضعيف حادّ، قائلة:

ـ من أين تأتين يا طفلتي؟ لقد تأخّرت كثيراً في الطابق السفلي...

ـ لقد كنت في المطبخ أريد أن أصنع قالباً من الكعك هذا المساء.

ـ الكعك كان مهيّأً منذ الصباح!

ولم تكن الأم لتقول أكثر من هذا... وماذا بإمكانها أن تفعل؟ إن ابنتها تكذب بدون شكّ! والتعب يجبرها على إغماض عينيها. وأن توبّخها من جديد... هذا شيء لم يعد ينفع.

ـ لا تتركيني كثيراً يا جان. أنا أشعر بنفسي ضعيفة جداً... أنا بحاجة إلى مساعدتك...

ـ لن أتحرّك يا أماه، كوني مطمئنة...

وكانت تعود من جديد لتطريزها متفظة على ثغرها بابتسامة رائعة. وبما أنها كانت شديدة الحنان فقد شعرت نحو أمها المحكوم عليها بالموت، بشفقة عميقة. ولأنها كانت تعلم أن هذه الحال لن تدوم وقتاً طويلاً وأن أيام السعادة مقبلة عليها، فقد راحت تعتني بشغف وصبر. وقالت لها أمها:

ـ لك قلب طيب يا طفلتي. وهذا سيعطيك الخلاص وهو أمنيتي الوحيدة... وإني أشعر بأنك، وللأسف، يتغلّب عليك دم أبيك وتأثيره الخاطىء... ولكن قلبك الطيب سيعيدك إلى الطريق المستقيم.

ـ أعدك يا أماه بأنني سأفعل الخير كلما استطعت.

وراحت الأيام تمرّ بطيئة وطويلة، والأم العجوز تنهار أكثر فأكثر، ونينون لا تتركها إلا قليلاً. وذات مساء هربت لترتمي بين ذراعي عشيقها، وعلى عتبة الباب كانا يتهامسان ببطء. قالت نينون:

ـ أمي مريضة جداً... والطبيب يقول لي بأنها لن تعيش أكثر من أيام قلائل... أنا حزينة جداً!

ـ يا صغيرتي نينون، دعيني أنسيك همومك.. لندخل معاً..

ـ لا، هذا لا يمكن أن يكون. في هذه اللحظة أشعر بأنني يجب أن أكون المرأة التي تتمنّاها أمي، وبعد ذلك...

وكان شحّاذ يدور حولهما منتظراً حسنة منها. فأخرجت محرمة مطرّزة وناولته إياها وقالت:

ـ خذ هذه واتركنا بسلام.

وبينما كان الرجل يبتعد مندهشاً منحت شفتيها لحبيبها ثم تركته بسرعة.

وهذه مدام لانكلو تعيش ساعتها الأخيرة، ونينون تمكث إلى جانبها قلقة كأنما حياتها نفسها مرتبطة بحياة هذه التي تموت. وتحت ضغط قلبها شعرت بأنها تحب أمها أكثر مما تظن، لأنها كانت الشخص الوحيد في العالم الذي حاول أن يحافظ عليها وأن يحميها من شرور العالم...

وعندما فكّرت فجأة بأنها ستصبح وحيدة دون معين، أخذت ترتجف.

وكان الكاهن يأتي إلى منزل دي لانكلو كل يوم، فتعترف لديه مدام دي لانكلو وتتناول القربان المقدس مطمئنة إلى أن ابنتها سوف تجد طريق الفضيلة. وقد قالت لها ذات يوم:

ـ أرجوك يا نينون، إن أيامي في هذا العالم أصبحت قصيرة، وعليك أن تجعلي ساعاتي الأخيرة مطمئنة وهادئة. هل تعديني بذلك؟ هل تعدين بأنك لن تنساقي بحميّة طبيعتك وبأنك ستكونين رزينة وعاقلة...

ـ سأحاول يا أمي... من أجل حبك.

ـ وبأنك ستزورين الكنيسة دائماً؟ لا تنسي يا طفلتي أن أفراح العالم قصيرة. الله وحده هو الذي يبقى و...

ولم يمهلها الموت لإتمام عبارتها، إذ ارتجفت ولفظت أنفاسها الأخيرة بهدوء وهي تتمتم صلاة بين ذراعي نينون التي تبكي...

سهرة الاستعداد

*

نينون الآن في حالة غير اعتيادية.

موت أمها، وجهودها المضنية التي بذلتها في سبيلها، والليالي البيضاء التي استنفدتها قلقة واجلة، وقداسة ذلك الموت، كل ذلك جعلها مضطربة ودفعها لأن تضع أمام نفسها عدة قواعد أخلاقية لاتّباعها والسير بموجبها.

لقد قطعت صلاتها مع «راريه» واختلت بنفسها مبتعدة عن جميع المشاكل الأخرى. فلقد أرادت أن تكون طاهرة وشريفة بعد موت أمها. وتذكّرت أن حنثها بوعدها لأمها لن يكون لائقاً. وها هي وحيدة لأوّل مرة في حياتها، تفكّر في مستقبلها الغامض وخصوصاً أنها أصبحت الآن في حالة الفقر، وأصبحت مسؤولة عن مستقبلها وعن كل شيء يخصّها دون ضغط أو إكراه. وخيّل إليها أنها كبرت في عدّة ساعات مدة عشر سنوات!

العادة في مثل هذه الحالات، أن تعتزل المرأة العالم وتلجأ إلى دير، حيث يمكنها أن تعيش في سلام وهدوء، وتحاول هكذا إعادة التوازن إلى نفسها. أما نينون فراحت تتأمل في حالتها بعد مضيّ الأيام الأولى المحمومة من الوحدة والحزن، وتتذكر في مرارة أيامها مع «سان إتيان»

و «راريه» وقالت في نفسها: يجب ألّا يعطي الإنسان أهمية لأشياء سخيفة ماضية لا تستحق الإضطراب والتألم من أجلها. ثم قالت أيضاً: «يجب ألّا أفكّر في ذلك أبداً». وانصرف بكليّتها للإستماع إلى موسيقى والعزف المدهش الذي عاد إليها حيويتها كفنّانة! كم كان هذا جميلاً وأخّاذاً!

وذات مساء، كانت تركع في الكنيسة مصلية. وكانت أشعّة الشمس الذهبية الأخيرة تضيء المذبح وصورة المسيح. فقد كان الصمت ثقيلاً ورهيباً حتى ليستطيع الإنسان أن يتخيّل رؤيا أو حدوث أعجوبة غير مرئيّة. وكانت أصوات الراهبات تبلغ أذنيها أحياناً من وراء «الشعريات» وكأنها أصوات جوفة سماويّة. كل هذا كان أقرب إلى الخيال والحلم منه إلى الواقع والحقيقة. وشعرت نينون بعذوبة لا توصف وقالت:

«إلهي، لا أستطيع المكوث هنا دائماً، حيث لا تعب ولا صراع! لا أودّ إلا أن أصلي وأطيع! كانت أمي تحب كثيراً أن تراني أدخل الدير. ألم يكن معها حق؟ أليس العالم قاسياً لا يطاق؟ ماذا منحني حبي الأول، الحب الذي يقال بأنه يبقى مع المرأة إلى النهاية؟ كان أبي يردّد دائماً هذا القول: «على المرء أن يمنح اليوم الحاضر متعته ولذّته». وها هو ترك كل شيء وهرب. لكن إلى أي شيء ترى قاده ذلك؟ لقد ارتكب جريمة وفقد المرأة التي أحب. آه، لو كان باستطاعتي أن أحسّ بالدعوة إلى دخول الدير، وإلى أن أحيا حياة الراهبات!»

ومرّت الأيام. فاستعادت نينون صحّتها وبهاءها الأول.

ولقد كانت تعلم حقّ العلم أن حياتها ليست بين الراهبات، إذ لم يكن لديها الإنسان الساذج الذي باستطاعته وحد أن يدفعها إلى دخول الدير.

وبعد مضيّ عدّة أسابيع سئمت من كل هذ الأفكار التي كانت تحسّن لها حياة الرهبنة. وحدّثت نفسها تقول:

ـ «هذا شيء مفروغ منه، وما عليّ إلا الدخول إلى العالم من جديد.»

لقد كانت تدرك هذه الحقيقة عن نفسها وهي الشهوانية التي لا تزال تحتفظ ببعض ذكريات ماضيها القريب الحارّ، والتي أخذت تشعر بالحنين إلى هذا الماضي وبالرغبة التي لا تقهر.

ماذا ستفعل إذن؟ وكيف ستعيش؟ إنها ليست موضوعاً قابلاً للزواج، فهي فتاة وحية وبدون رأسمال مغرٍ اللهمّ ما عدا مبلغاً صغيراً استطاعت أن تتركه لها أمّها الحكيمة المقتصدة، ولكنه يكاد ينفد... ثم إنها فقدت الفضيلة بالإضافة إلى كل هذا. لقد كان هنالك شيئان تمتلكهما للإنتصار على الحياة والرجال، هما: جمالها وذكاؤها.

جمالها؟ لا، عفواً ليس هذا القول بحقيقة. نينون لم تكن جميلة بالمعنى المتّفق عليه للجمال يومذاك، لكنها تملك جاذبيّة ومقبّلا كثيرة. فوجهها بلون الفجر تحيطه جدائل شعر ثقيلة كستنائيّة مذهّبة. وثغرها كان مدهشاً ومغرياً بلونه المضيء الصافي. وعيناها كبيرتان كانتا تتّقدان ذكاءً عندما تتكلّم، وكانتا تتّشحان بشحوب نفّاذ عندما تقلق أو تضطرب. كل هذا كانت تدركه وتعرفه حقّ المعرفة: فمرآتها كانت تبوح به! والعيون التي كان أصحابها يركعون على قدميها الصغيرتين، كانت كانت تخبرها بأنّها جذّابة وشهيّة. ولكن الشيء الذي لم تستطع تقديره حتى في نفسها، هو عذوبتها التي لا توصف، وانسجام حركاتها الرشيقة، وسحر صوتها، والقدرة المذهلة على التعبير التي تملكها بالضرب على القيثار وبإنشاد الشعر، ورشاقة يديها الجميلتين التي كانت تأخذ بلبّ من ينظر إليها!

ومع مرور الأيام ازداد تفكيرها في نفسها وفي وضعها الراهن. نعم، لقد خُلقت لهذه الحياة العصريّة! خُلقت للسعادة وللحب! ولكن الأحزان الطارئة كانت تحملها أحياناً على التفكير في وجوب التحاقها بالكنيسة كراهبة. ففي أي وقت ستكفّ عن التفكير في مثل هذه الشؤون وعن محاكمة نفسها وانتقاداتها؟

وكانت حياة المجتمع يوم ذاك كافية لأن تضع حدّاً لهذا التفكير العابس. غير أن هذه الحياة تتطلّب مالاً كثيراً، ومن أين لها المال الكثير؟

واستطاعت نينون بسرعة أن تجد لها حلّاً مناسباً، وذلك أنها نشيطة التفكير قويّة البديهة، ولقد كان الأمر واضحاً لديها وبسيطاً: فالزواج محرّم عليها لأنها تعيش حياة حرّة ولها عشّاق كثيرون... إذن فبمقدورها في هذه الحالة أن تجد مغرمين أغنياء يمكنهم الدفع الكثير مقابل أقل جهد ممكن منها. وهكذا تركت التفكير في دخول الدير إلى الأبد. وهي عندما فعلت كانت متأكّدة ممّا تريده وممّا ستصنعه من الآن فصاعداً، فلقد حدّدت لنفسها الطريق التي ستسلك: سوف تصبح غانية من غانيات باريس!

بالمزاد

*

عندما دخلت نينون المنزل من جديد في شارع «النجمات الثلاث» وجدت نفسها محاطة بالعشاق الذين لا يهمّهم سوى المتعة العابرة. ومن أجل المتعة كان لا يلزمها سوى الإختبار فقط.

وهي ما كانت تعزم على أمرها حى توجّهت إلى النائب كولون الذي ألحّ على امتلاكها، قائلاً لها:

ـ لسوف أؤمّن لك حياتك وسأبذل لك خمسمئة ليرة في الشهر.

ـ لكنني أريد أن أبقى حرة لا أرتبط بعهد، وأنا متأكّدة من أنك لا تقبل بشرطي هذا.

وكان كولون بشعاً وضخماً وزنديقاً. بل إنه كان يضرب المثل في زندقته وضخامته. وكان يلاحق النساء والفتيات بشراهة حتى كانت فضائحه الأخلاقية تحرمه من كرسيه في المجلس. وكان يحب كثيراً أن يجمع حوله الفتيات ليتّخذ هيئة المنتصر الفاتح في هذا المجال. ولشدّ ما أدخل السرور على قلب نينون عندما قال لها ذات يوم:

ـ تصوّري أن الجميع، باستثنائي أنا، ينامون مع امرأتي! والأنكى من ذلك أن كل هذه الشلّة لم تستطع أن تمنحني وريثاً!

وأقام كولون من نفسه حامياً للصغيرة نينون التي كانت ما تزال مجهولة. ولكن سحرها وتفكيرها وثقافتها كانت تدهش جميع عارفيها بالرغم من عنادها. وسألها قائلاً:

ـ أيّة شروط تضعينها لي؟

ـ مقابل حصولي على مالك لن أعطيك شيئاً.

ـ لا شيء أبداً؟

ـ شيئاً قليلاً! حقّك فقط في زيارتي وبدون أن تقف مني موقف المحافظ عليّ. فلي الحق أن أختار من العشّاق ما يحلو لي!

ـ أوه! لقد خُدعت! لكن لا فرق عندي. كل ما أملك أن أقوله لك هو إنني أقع دائماً على فتيات لا سند لهنّ غير جاذبيّتهن...

فانفجرت نينون ضاحكة وقالت:

ـ لا أدري ما يدفعك إذن للإحتفاظ بي؟

ـ لأنهم سيظنون أنك عشيقتي، وهذا ما يرضي غروري أمام الجميع! وأكثر من هذا، فإنني سأفقأ حصرمة في عين امرأتي التي تقول للجميع بأنها لا تستطيع احتمالي، لا هي ولا أيّة امرأة أرى. على كل، أيرضيك هذا؟

ـ بالطبع أنا أقبل، لكن عليك أن تحترم شروط الإتفاقية، وإلّا فإنني سأضطرّ إلى عدم استقبالك.

ـ على أمل أنني سأحظى في الأيام المقبلة بما ستمنحينني إياه... لن أطلب شيئاً فوق ذلك يا صغيرتي الجميلة. وها أنا ذاهب لإحضار المبلغ.

وعندما أتى بالمال بعد لحظة وجيزة، فأخذته نينون بدون أن تقول شكراً، بل إنها تناولته بهيئة تنمّ على الاحتقار. وحين همّ بأن يداعب ذراعها وأصابعها، ارتدّت عنه بسرعة وقالت:

ـ لا تبالغ، وتذكّر ما كان بيننا.. أو فلتذهب بمالك!

ـ أنت قاسية جداً. وإني لأسأل نفسي هل أنا مهرّج؟

ـ مهرّج؟ سيقال بأنك عشيقي... وأنت تسمّي نفسك مهرجاً؟

ـ حسناً إذن، كفى! علينا ألّا نتخاصم. ولكن قولي لي، لأستطيع زيارتك عندما تريدين أن تُزاري؟

ـ نعم، إلا إذا كنت سكران. وعليك أن تكون مؤدّباً مع ضيوفي. فأي خطأ بسيط يبدو منك سيكون كافياً لأن أمنع نفسي عن استقبالك ثانية. وعندها سيكون لدى زوجتك مدام كولون موضوع رائع للتنكيت...

ومن بين جميع أولئك الذين «يدفعون»، لماذا اختارت نينون هذا الشخص الذي يستوجب الاحتقار والسخرية؟ في البدء كان همّها أن تؤمّن حياتها الماديّة. وكان على هذه القنّاصة الحسناء أن تكون في أمان حتى يمكنها أن تحيا حياتها التي تريد. وها هي، يوماً بعد يوم، تعي نفسها وطريقها وما تعمله أكثر فأكثر. المهم ألّا تتحمّل عبء التفتيش عن المال.

أمّا اختيارها هذا الشخص الأقل جدارة بها من غيره، فذلك راجع إلى حبّها للتحدّي.

وبعد أيام قليلة زارها كولون وهو بادي الغبطة، وقال:

ـ زوجتي أقامت الدنيا وأقعدتها عليّ بسببك.

ـ آه، يا للسماء! هل فعلت ذلك غيرة عليك؟

ـ بالطبع لا، فنحن لم نعد أبداً في هذه الناحية. ولكنها عرفت بأنني سأضمن حياتك. وهذه الزوجة الجميلة التي تضّجع مع رجال فرنسا كلّها، غضبت لأنني أنفق مالي على امرأة أخرى. لقد هاجت وماجت وشتمت وأكثرت من الشتم. ولكنِ عملها هذا لا يطاق. فهل أستطيع أنا، مثلاً، أن أرمي عشيقها «دي أمري» من الباب؟ أبداً لن أفعل هذا، بل إنني أعتبره من أعزّ أصدقائي.

ـ نعم، ولكنه لا يكلّف زوجتك شيئاً...

ـ إذن ينبغي أن اؤمن حياة عشّاق زوجتي أيضاً؟ إن «دي أمري» غنيّ جداً، وباستطاعته أن يضمن حياة عشيقته لدرجة من السعادة تحسد عليها. هذا حسن. أنا لا أمانع. لكني لا أقبل أن تتدخّل زوجتي في شؤوني الخاصة.

كانت «مدام كولون» تعلم حق العلم أن فتاة جميلة مثل نينون لا تقبل باتّخاذ مثل هذا العشيق لها لو لم تكن تستنفد منه ماله.. المال الذي يحتمّ عليها أن تعوّض هي عنه ليمكنها الإستمرار في حياتها الباذخة. وحتى ذلك الحين لم تكن لتفرط في الحياة الغرامية التي تريدها، بل كانت تتحفّظ بعض التحفّظ في ذلك حتى لا تثير سخط المجتمع فينبذها في التالي كالنواة.

وكانت نينون تُستقبل في بعض الصالونات عندما كان السيّدات يعتبرنها، في حياة أمّها، كفتاة رصينة. ونعني بهؤلاء السيّدات اولئك الذين يسمين أنفسهنّ محافظات ومحترمات. أمّا الآن، وتحت تأثير مدام كولون

التي تريد أن تنقذ مالها، فلقد أُقفلت الصالونات في وجه نينون، على اعتبار أنها خطرة بالنسبة لأزواجهن، كما أرادت مدام كولون أن يكون!

أغلقت الأبواب في وجهها؟ لا بأس، الآن باستطاعتها ألّا تتحفّظ أو تتصنّع في حياتها. باستطاعتها أن تعيش كما تحب أن تعيش، وتستقبل العاشق الذي تهوى. وتطرد من لا رغبة لها فيه. وذات يوم قالت نينون للسيد كولون:

ـ أرجوك أن تشكر لي امرأتك من قبلي، فلقد أدّت لي خدمة كبيرة. من الآن فصاعداً لن أهتم بالمظهر اللائق الذي يجب أن أتصَنّعه أمام الناس. فلقد وفّرت عليّ زوجتك هموم التكلّف الذي أمقته. وقبل كلّ شيء أريد أن أخبرك بأن الخمسمئة ليرة التي تدفعها لا تكفيني يا صديقي،لذلك أراني مضطرّة لأن أشرك معك ماليّاً آخر للدفع.

ـ آه، لكن لا! فافتخاري هو أن أبقى الوحيد.

ـ أنا أتأسف لافتخارك، لكنني لا أستطيع العيش بهذه الخمسمئة... عليك أن تعلم ذلك، وعلى كل حال فقد تلقيت عرضاً مغرياً.

ـ وممّن جاءك هذا العرض؟

ـ من الكونت دوبيجو...

ـ دوبيجو؟ آه! حسن، حسن جداً! هذا النذل ألقاه دائماً في طريقي!

وانفجر ضاحكاً. أما هي فتابعت تقول: الحقيقة أني سمعت أقوالاً تسرّ حولكما أنتما و...

ـ الرئيسة «تانبونو» أليس كذلك؟ ولكن كل الناس يعرفون هذه

القصة. لقد قالوا حولها الكثير. وسمعة الرئيسة لا تخسر بذلك شيئاً فهي، كزوجتي، معرفة جداً...

ـ أنا لا أستطيع أن أسمع كثيراً، وليس باستطاعتك أن تغيّر لي رأيي بأحاديثك هذه.

ـ هذا مضحك جداً! دوبيجو كان حقيقة عشيق تانبونو، ولكنه لم يكن أبداً الوحيد. كان يقاسمه إياها الأب «سان أوفرت». ولقد تجرّأ هذا الأخير على أن يسكن عشيقته الطابق العلوي من منزله، بينما اكتفى هو بالطابق الأرضي.

ـ إذن كان باستطاعته أن يرعاها جيّداً...

ـ يرعى امرأة مثلها؟... لا، هذا محال. فها هو دوبيجو يصعد إليها على سلّم من الحبال كانت ترميه له...

ـ هذه قصة طريفة...

ـ وهل تعلمين ما كان يفعله هذا الـ«دوبيجو» الشيطان؟ في كل مرة كان يكسر زجاج إحدى نوافذ الطابق الأرضي حتى يخبر سان أوفرت بأن عشيقته تقضي فوقه وقتاً طيّباً.

ـ هذه بشاعة! أنا لا أفهم كيف تستطيع امرأة أن تمنح نفسها لعدّة أشخاص في وقت واحد. ألست ترى بأني ساذجة هكذا على طريقتي المتواضعة؟..

ـ ولكنك أنت تفعلين الشيء نفسه يا عزيزتي... هل تعلمين بأن دوبيجو قدّم لي ذات مرّة شقيقة الرئيسة؟ في الحقيقة، لقد أعجبتني

وكانت معي أقلّ قساوة منك... أتذكّر مرّة أننا تمشّينا سويّاة في إحدى الحدائق وكان شيئاً مسليّاً لنا وللناس الذي رأونا.

ـ كم أنت رائع! ولكن كن متأكّداً بأنك لن تحظى معي بنزهة كهذه!

ـ يؤسفني هذا.

ـ ومع عرضك لذكرياتك فإنك لن تمانع بالطبع أن تجد دوبيجو هذا في طريقك مرة ثانية.. مع أنني أخبرك بأنه لن يحظى مني بأكثر ما حظيت أنت.

ـ تماماً كما قبلت أنت. و... يجب أن اضيف بأنه أكثر منك كرماً، بدون أن يطلب زيادة...

فزمجر كولون وانصرف!

وهكذا أصبح لنينون موراداان يتنافسان عطاءً مقابل الأقلّ الأقلّ...

كان دوبيجو، المستخدم عند «غاستون دورليون»، أميناص جداً نحو سيده. كما كان مغامراً وماجناً صريحاً. وبالإضافة إلى رذائل كولون التي «يحظى» بمثلها هو أيضاً.. كان يستطيع الفوز بأشياء كثيرة، لأنه شجاع ومستعدّ دائماً لأن يضحّي. وعدا على ذلك فهو كريم، ولم تكن تتشكّى نينون منه أبداً.

ونينون كانت حكيمة من هذه الناحية، فقد استطاعت أن تتلافى الاصطدام بين المموّلين، لا بل استطاعت أن تخفض من عداء واحدهما للآخر...

بهذه الطريقة استطاعت أن تؤمّن وضعيّتها، فهي لم تكن مشهورة بعد،

مكتبة ٢٨٧

وعشاقها كانوا ما يزالون من هؤلاء الشّبان الذين لا فائدة مالية أو معنوية منهم. وأدركت ان مخدعها لا يؤمّه أحد من رجال العلم والأدب الذين كانوا دائماً سبيلاً لشهر ة النساء الجميلات في المجتمع.

كانت تريد أن تخلق حولها حلقة من الأصدقاء وأن تخلق لنفسها علاقات اجتماعيّ هي بأشدّ الحاجة إليها. لكنها كانت تعلم أن أبوا الصالونات غلقة بوجهها. لذا عزمت على زيارة ماريون ديلورم.

عند ماريون ديلورم

*

كانت ماريون ديلورم أشهر امرأة في باريس يومذاك، وكان بيتها ملتقى رجال الأدب والشعر وسائر الرجال المميّزين في البلاط وفي المدينة.

وكانت علاقتها مع سان ـ مارس قريب الملك لويس الثاني عشر المفضّل، قد توطّدت نهائياً. فمنع الملك نسيبه من مقابلة ماريون، لكن سان مارس كان يهرب على حصان في الليل ويقطع مسافة طويلة من سان جرمان حتى يلاقي عشيقته ساعة من الزمن! ويسرع في الرجوع لكي يكون حاضراً عند نهوض الملك من النوم.

وجعل الناس يتهامسون حول هذه العلاقة، فقالوا إن سان مارس أراد أن يتزوّج بماريون التي يعبدها، وكان البعض أحياناً يؤكّدون بأن زواجاً سرّياً يربط بينهما. وكان معروفاً لدى الجميع بأن ماريون كانت في زمن مضى مدام «لا غران». ودفع التهوّر بسان مارس إلى الهلاك: ذلك أن ريشيليو، قبل أن يموت، فصل رأسه الجميل عن بدنه على المقصلة مع رأس صديقه الحميم ديتو.

وبكت ماريون هذا الحبيب العزيز الأحمق. وبعد ذلك تقبّلت دعوة أكثر من عاشق واحد. لكن هذا الهوى العنيف بقي في ذاكرتها. وهي لم

تكن تسكن بعيداً عن نينون، في الساحة الملكيّة نفسها، محور الأناقة في باريس. وكانت أنبل وأرفع النساء جارات لها، وهنّ من أمثال دوقة دي روهان، وأميرة غيمينيه، والماركيزة دي بيينر، وزوجة المارشال سان جيران، وكونتيسة سان بول، ومدام دي باسومبيير، والرئيسة أوبري، وكثيرات من أكبر ذوات الغنى والجاه.

وكانت ماريون تعيش وسط هذه الشلّة الأنيقة، ودائماً كان هناك من يستقبلها بذراعين مفتوحتين. وكانت أمها تعيش معها أيضاً، واثنتان من شقيقاتها. وكانت رائعة ولطيفة وعذبة حتى أنه لا عدوّ لها أبداً.

وعندما وصلت نينون عندها للمرّة الأولى التقت بشلّة من الأصدقاء. وكم كانت آنئذٍ تزهو وتعتزّ وسط هذه الأناقات والضحكات وصخب الإعجاب وعبارات الإطراء. ولم يكن لها إلّا أن تختار من يرضيها. وكان الوقت يومذاك بداية الشتاء والحرب قد توقّفت. وكان كلّ الأسياد وشلّة لويس دي بوردون ودوق دونجهين، موجودين في باريس ولا همّ لهم جميعاً إلا الحب. وكان صالون ماريون مسرحهم الوحيد، حيث كانوا يشعرون بحريّة التصرّف وبالبهجة المستديمة، وكل واحد منهم يترصد اللحظة التي تقطع فيها ماريون علاقتها الغرامية بآخر عشّاقها، راجياً أن يكون دوره قد وصل. ذلك لأنها كانت فنّانة كبيرة في هذا المضمار الذي منحته حياتها، والسعيد السعيد من يقع اختيارها عليه ولو مرة واحدة.

عاشت نينون إذن بين جمع من هؤلاء الذين كان منهم موريس وغاسبار وغرامون بوتفيل وآخرون كثيرون وعلى الأخص الشاعر الرائع الظريف سكاروّن والأبيقراطي اللطيف سان أفريمون الذي سيصبح صديقها الأمين طيلة حياتها...

في البدء كانت نينون وجلة وضائعة وتشعر بالحيرة بين هذا الجمع المرح لكن ملاطفات ماريون وإفساح المجال لظهورها، ساعداها بعض الشيء.

ولم يكن أحد يعرفها بعد، لذلك كانوا يتأمّلونها وكل منهم يعطي ملاحظاته الخاصّة فيها، فيقولون: فتاة جميلة... بشرة ناعمة مذهلة... يا لهاتين العينين... لها هيئة المأخوذ... هل نقدر أن نصطاد؟ الخ...

والتفّوا مرّة حول ماريون يسألونها قائلين: من تكون ضيفتك الجديدة هذه؟ فقالت:

ـ نينون دي لانكلو، فقدت أمها، وأبوها قد اختفى... هل تتذكّرون موت دي شابان؟ أوه! لا بدّ أنها أصبحت قصة قديمة.

ـ إذن هي وحيدة وغنيّة بالطبع؟

ـ في الحقيقة لا.

ـ وكيف تعيش إذن؟

ـ يقولون بأن السيد كولون قد أحسن إليها... والسيد دوبيجو أيضاً....

ـ إيه، أيه، عندما يكون هناك اثنان فبالإمكان أن يصبح العدد ثلاثة، خصوصاً وأن الأولين لا يملكان إلّا سلاحاً واحداً هو المال...

وعندها راحوا يتقرّبون من نينون ويرشقونها بعبارات المديح والثناء. ولم تكن هي لتتأثّر بالحركات الصبيانيّة، ولكنها تتسلّى بها على كل حال. وسأل بوسي رابونين ماريون بصراحة، قال:

ـ يظهر أنك كنت البارحة عند الظهر في مشهد لطيف في الساحة الملكيّة؟ فقالت ماريون ضاحكة:

ـ ستجعلني أحمرّ من الخجل. لقد راقبني... وهو ولا شكّ أرذل رجل عرفته!

وكان اثنان أو ثلاثة من الحضور يجهلون الحادث فاستخفّتهم القصة. وقالت نينون:

ـ إحكِ لهم القصة يا روكيلور، فأنا أعلم أنك كنت على علم بالحادث.

فقال روكيلور:

ـ الأمر بسيط جداً. لقد عاد كاندال ببضع جنود ألبانيين وبندقيين من شياطين المعارك. وهم وحوش حقاً، ولا يضايقهم أمر، وكأنهم لم يسمعوا أبداً بشيء اسمه الحياء.. فقال سان أفريمون:

ـ هذا أحسن لهم، وأنا أسأل لأي شيء يستعمل الحياء... والتقت عيناه بعيني نينون وابتسما. وتابع روكيلور قائلاً:

ـ على كل، كاندال ورافيني وجدا قبل البارحة ألبانيّين ينامان الليل هادئين في وسط الساحة الملكيّة مع فتاة. وقال رافيني: هل تريد أن تربح ليرة ذهبية؟ فقال كاندال: نعم، لكن ماذا تريدني أن أعمل مقابل ذلك؟ فقال رافيني: أن ترجع غداً مع هذه الفتاة وتضع معها الشيء نفسه، عند الظهر، وفي المكان ذاته. فقال كاندال: بالطبع أنا أقبل ذلك، وهل تدفع لي مالاً من أجل ذلك؟ هذا شيء رائع! البارحة إذاً في اللحظة التي أخذ الممثّلان المأجوران يقومان بدورهما، أقام رافيني وكاندال حولهما ضجّةً مصطنعة استلفتت أنظار جميع السيّدات اللواتي أخذن يتفرّجن من الشبابيك. ولكن حياءهنّ دفعهنّ إلى تغطية وجوههنّ بأيديهنّ، ورحن يتطلّعن من خلال الأصابع.

وهنا قال الشاعر سكارّون:

يا للمشهد الجميل! وكيف استطاع أن يفعل هذا أمام الجميع؟

فأجاب موريس دي كوليني قائلاً:

ـ كنت ساعتذاك عند مدام دي روهان. فاجتمعنا حول النوافذ. وكانت هناك سيدة قصيرة النظر فسألت تقول: ماذا يفعلان إذن؟ أنا لا أراهما جيداً. فقالت مدام دي روهان:

ـ لا أدري.. ولكن هذا يذكّرني بشيء ما!

وضحكوا كثيراً مندهشين. وكان ذلك موضوعاً صالحاً للتسلية. فالوقت في الحقيقة وقت مرح: ذلك أن ريشيليو كان قد نام نومه الأبدي، ولم تعد المقصلة مصلّتة فوق الرؤوس، وبات باستطاعة الجميع أن يتنفّسوا بارتياح.

وأعجبت نينون كثيراً بماريون. أعجبت بجمالها وطلاقتها ومرحها. وهذا الصالون الذي يجتمع فيه القادة والشعراء والأغنياء والأسياد، كان حلمها المنشود. أضف إلى ذلك أن المكان رائع ثريّ: فهنالك الأواني الذهبية والفضيّة واللوحات الفنيّة المشهورة، وأناشيد الشعراء التي تُلقى فيعجب بها الجميع ويصفّقون لها في حماسة واندفاع. وتعلّمت نينون في يومها الأول درساً كبيراً: فماريون لم تكن تملك فكراً ثاقباً، لكنها تملك جمالاً وسحراً وحرارةً متألّقة... لذلك فكّرت في نفسها تقول: " النجاح الذي أحرزته ماريون باستطاعتي أن أحرزه! وإذا لم يكن لي جمالها، فإنّ لديّ شيئاً آخر..."

وأخذت نينون تتأمل السيد غاسبار دي كويني، فإذا هي تلحظ أنه كان دقيق الجسم ممشوق، ينضح بالحيويّة والجرأة! وأيّة عذوبة في عينيه! إنهما مشعّتان واسعتان ضاحكتان. أما أنفه فينتهي بدقّة فوق فمه الشهواني. وعرفت نينون بأنه الرجل الثاني هنا... والصديق المفضّل لدى الدوق دونجين! وشعرت أن الرجال عند إحاطتهم به يضمحلّون ويتفهون.. وشعرت بأنه يعجبها. ولكنه هو لم يهتم بها، ولم يكن يفارق ماريون التي جعل كل همّه أن يفوز بها. وارتفع صوت رقيق أنيق إلى جانب نينون يقول:

ـ أنا متأكّد من أنك تفكرين بأن الجمال لا يقاوم...

فاحمرّ وجه نينون لشعورها بأن صاحب هذا الصوت استطاع أن يدرك داخليّتها، والتقت عيناها بعيني سان أفريمون، وتابع قائلاً:

ـ أوه، لا تحمرّي، فهو شيء طبيعيّ أن تعجبي بالجمال... وأنا نفسي، الذي لا أملك شيئاً من جمال أدونيس، أهب كل ما لديّ من مزايا مقابل سمة أو خط واحد من خطوط الجمال الطبيعي الذي لا يمكن النقاش حوله أبداً.

فتأمّلت نينون محدّثها، فإذا هو شاب ذو عينين متّقدتين بالذكاء وقالت بابتسامة خلّابة:

ـ أنا أؤكّد لك بأنني أفضل رفقة شاب مفكّر على رفقة آخر جميل فقط!

ـ نعم، هذا وقت التحدّث فقط... أمّا في المخدع...

ـ هناك أظنّ بأن القيم تنعكس، لأننا ندخل في عالم لا يحتاج للفضيلة أبداً...

ـ ولا للفكر أيضاً !

ـ أوه! أنا آسفة! فبالرغم من أن التجربة تنقصني، أظنّ بأن الحب يتطلّب الفكر، بل يتطلّب نوعاً من العبقريّة!

ـ الحب، دائماً الحب! ولتكن المرأة عند ذاك من تكون! إنك تخطئين...

ـ أنت المخطىء، فانا لا أريد بالطبع أن أكون أمَةً للحب، بل أريد أن ألمس بواسطته الفرح والبهجة دون أن يستعبدني أو ينقص من قيمتي.

ـ هذه أقوال حكيمة جداً تخرج من فم جميل جداً. إن أبقراط كان يقول... فقاطعته نينون ضاحكة، قالت:

ـ أوه! يا سيدي، أرجوك ألا تكمل، وإلا اضطررت أن أستشهد لك بصفحات كثيرة...

ـ إنك رائعة... فهل قرأت ابقراط؟

ـ وأضيف بأني أحمل مؤلفاته غالباً معي إلى الكنيسة كما احمل كتاب القدّاس.

ـ وهل أنت متديّنة أيضاً؟

ـ للأسف، لا...

ـ ولماذا التأسف؟ المهم أن يكون الإنسان حراص في تفكيره وصادقاً مع نفسه...

وعندما أخذت الأصوات حولهما ترتفع لتتناقش، قطع سان أفريمون ونينون حوارهما. فقد كانت ماريون إذ ذاك تُحدّث زائراً جديداً بشوش الوجه. وإذ ذاك قال سان أفريمون:

ـ هذا السيد دي بوترو. أما ماريون فقد قالت وهي بين ضاحكة وغاضبة:

ـ لا تقل أمامي أشياء قبيحة عن الآباء القدّيسين. فأنت تعرف أنني مؤمنة شديدة الأمان. فقال أفريمون:

ـ لكنني لا أهاجم أبداً إيمانك يا صديقتي العزيزة. أنا أقول فقط بأن آباءك الصالحين هؤلاء لا يأكلون إلا سمكاً طازجاً، كما يقال، ويتركون جانباً كتف الخروف.. أليس هذا عملاً شريراً؟

وضحك الحاضرون، وكانت ماريون أوّل من ضحك. أما سان أفريمون فقد تابع كلامه، قال: أنا كثيراً ما اتعجّب من أن الناس، وخصوصاً السيّدات، يحاولن خلط الإيمان دائماً بالمواضيع الجسدية والشهوانية. لقد حدّثني دي فياسك مرّة بأن إحدى عشيقاته، وهي سيدة كبيرة خفيفة الظل، قالت له في إحدى الليالي عندما كانا سويةً: "هنالك شيء آخذه عليك... فأنت لست غيوراً على "العذراء" وهذا يحزنني جداً!"

ودارت نينون بعينيها، وبلفتة عابرة لفّت الصالون الأنيق المرح اللطيف بنظرة عاجلة. وقالت:

ـ يخيّل لي أني لا أفكّر بالعذراء في لحظة كهذه.

*

هذه الزيارة الأولى إلى ماريون تبعتها زيارات أخرى كثيرة. وأصبحت المراتان صديقتين حميمتين. وأحياناً كثيرة كانت ماريون تجبر نينون على قضاء الليل عندها، ممّا كان يثير بعض الحكايات حولهما. وكثيراً ما كانت تستشيرها في اختيار أثوابها. وكانت نينون تتبسّط في هندامها وزيّها حتى تفسح المجال لرضى ماريون المتأفّفة، وحتى لا تظهر كمزاحمة لها. ولم تستطع نينون أن تدعوَ أصدقاء ماريون إلى بيتها، لكنها كانت تصبر منتظرة الفرصة المناسبة حتى لا تقع في خطأ ما يُفسد عليها حياتها.

أحزان الحب

*

كان غاسبار دي كوليني أحد مشاهير هؤلاء الأسياد الصغار، روّاد مرابع الساحة الملكيّة حيث اللعب والحب والشرب. وحيث يجد المرء من «المكافأة» بقدر «شجاعته»!

وكان هؤلاء لا يجولون بين الصالونات باحثين عن الحوادث المثيرة، ويقيمون قدر إمكانهم عند النساء المشهورات.

وكان الجميع، وخصوصاً كوليني وصديقه فرانسوا دي شافانياك، يظنّون بأن ماريون ديلورم ستفتح لهم ذراعيها. وعندما كان هذان يتوجّهان إليها بعبارات الهوى والإعجاب، كانت ماريون تستقبلهما ببرود وبشيء من الوقار الذي تحيط به نفسها غالباً. وبالرغم من أنسهما ولطفهما، بقيت عبارات الحب والهدايا بدون تأثير... وذات يوم قالت ماريون لهما:

ـ أنتما ولا شكّ رائعان... لكنني لن أكون لكما طالما أنتما بعيدان عن محيط الكنيسة... فأنتما حتى الآن لم تتعمّدا! فصاح شافنياك مدهوشاً: هي أنت التي تطلبين منا ذلك؟

ـ نعم، ولا ترجوَا شيئاً مني بدون ذلك!

فضحك الشابان في بدء الأمر من هذه البادرة المستهجنة! فهل يجب أن يتعمّدا في سبيل دخولهما إلى مخدع ماريون؟! هذا شيء سخيف! لكنهما كانا يتحرّقان شوقاً إليها. وهما الوحيدان اللذان رُفضا من قِبل هذه الحسناء الساحرة التي لم تكن قاسية مع أحد. أيُخذلان؟ إنه لشيء مضحك... ولا شك أنهما سيصبحان سخرية زملائهما.

ووجد دي كوليني فكرة طيّبة، وهي الزواج بامرأة جميلة كالنهار اسمها مونتمورونسي بوتيفيل، من عائلة كاثوليكية محافظة. زبعد هذا، فالمعموديّة ستسهّل كثيراً من الأشياء. فقال لماريون:

ـ طيّب، نحن نقبل عرضك بكل سرور، لكن من هو الكاهن الذي سيتولّى إدخالنا في المعموديّة؟

فتحمّست ماريون وأرسلتهما إلى أحد الكهنة المتعصّبين. وعندما حانت ساعة الإعتراف قدّمتهما ماريون إلى أحد مشاهير متقبّلي الاعتراف، ومع ذلك فقد ارتاع هذا جداً عندما سمع شافنياك يعرض خطاياه، ذلك لأن هذين الشابين اللذين عاشا للحرب والحب، كانا قد سخرا كثيراً من وصايا الله والكنيسة. وقال الكاهن لشافنياك:

ـ كيف يمكن لشاب في عمرك أن يفعل أو يفكر بما فعلت وفكّرت؟

فقال شافنياك في هدوء:

ـ هذا ليس بشيء إلى جانب ما ستسمعه من رفيقي.

ولقد تحقّق الكاهن عند استماعه لكوليني من أن هذا الشاب وصل بحياته إلى أرفع مستوى للخطيئة عند الوثنيين.

وهكذا تخلّى الشابان عن مذهبهما البروتستنتي في عام 1643 ووفت ماريون بكلامهما، فكانت للأوّل وللثاني!

وعندما ثار أهل كوليني لتغييره مذهبه، لم يفكّر أبداً بالتراجع عن ذلك. وظلّ، طيلة شهور، مثال العاشق الأمين، فهو لم يكن ليغيب عن ماريون إلا ساعات معدودات. ولم يعر نينون دي لانكلو أية التفاتة، فأقامت نينون تنتظر دورها بصبر نافد.

كان كوليني قد أعجبها من النظرة الأولى. لذلك فهي تتألّم لعلاقته بماريون التي اعتزّت بأن يتمرّغ كوليني على قدميها! وأية سطوة كانت تملكها هذه الساحرة المدهشة! وبدأت الغيرة تأكل قلب نينون الصبيّة التي ظنّت نفسها أنها أكثر جدارة من الفاتنة الكبيرة بأن تمنح حبيبها المتع واللذائذ!

وعندما شعرت بأن كوليني أصبح أقلّ تحمّساً لعشيقته، أخذت هي تتدلّل وتغنّج لتلفته إليها. وراح «الرجل الثاني» عند دوق دونجهين، يتلطّف هو أيضاً مع نينون، ولكن دون أن يصرّح بما في نفسه، فتألّمت نينون لذلك وقالت في نفسها: ترى، هل سيجرؤ أحد عشّاق ماريون على احتقارها هي؟

وتحت تأثير نفاد صبرها ويأسها من برودة كوليني اتجاهها، كتبت قصاصة ورق تستدعيه فيها إليها. ولأنه لم يكن يريد رفض فكرة كهذه، حتى ولو كانت من الشيطان نفسه، قبل الدعوة. فمن أين له أن يرفض طلباً من امرأة شابة وجميلة. وبالرغم من، مغامرة كهذه لا تستدعي الحماسة، لأنها مغامرة سهلة، فقد أقدم على تلبية طلب نينون لظنّه أنها أكلة طيّبة بعد

مكسه ٢٨٧

أن ذاق ماريون ديلورم حتى التخمة.

وتابع كوليني صحبة رفاقه في المغامرات الليلية العابرة بدون أن يهتمّ لماريون أو لنينون، وكان في ذلك المفكّر والمتحدّث اللامع، والجريء الجذّاب الذي يزرع الاضطراب والقلق في كثير من القلوب. بل إنه أصبح همّ الأزواج وقلقهم الدائم.

وعندما كان يأتي لزيارة نينون لم يكن يحدّثها عن مغامراته الشخصيّة، بل عن مغامرات رفاقه. قال لها مرّة:

ـ كنا مرّة، أنا وروكيلور وبعض الأصدقاء الآخرين، في إحدى الأمسيات، فخطرت لنا فكرة الدخول إلى منزل السيد برينيول، وهو سيد محترم وصاحب مكتب... فقالت نينون:

ـ وما الذي دعاكم إلى الدخول عند رجل عبوس وجدّي كهذا؟

ـ الحقيقة أنه دعا للعشاء عدّة سيدات، عدا السيّدة غارنيه التي قابلتها في أحد الصالونات، والتي تظهر بمظهر الفتاة المتأدّبة لأن الفرص لم تسمح لي حتى الآن بالإنفراد بها وجهاً لوجه...

ـ ألا تكفّ عن ذكر مثل هذه الأشياء، من أجلي على الأقل؟

ـ حسناً، فلنلخّص الموضوع. دخلنا، فرأينا في جملة كمن رأينا فتاة شقراء مستلقية على السرير بجانب الستار، فأحدثنا ضجّة استلفتت نظر الجميع، فضحكت السيدات وضحك صاحب المنزل. ولكن هل تعلمين ماذا فعل روكيلور بينما كنّا نحن نتحدّث بمئات الحماقات؟

ـ لا بدّ أنه استلقى بجانب الفتاة الشقراء المتمدّدة على السرير؟

ـ بالضبط! وهمس في أذني قائلاً: « ألا تستطيع إلهاء الآنسة «غارنيه» والسيدات الأخريات في وقت واحد؟ أظن أنني سأكون معها على ما يرام»

فصاحت نينون تقول: يا للشياطين السفلة!

ـ إذن فقد جلستُ بجانب الآنسة «غارنيه» وحوّلتُ أذهان الجميع لأحاديثيَ الساحرة، وجعلتُ أسرد القصص واحدة تلو واحدة، فلم أدع للجميع مجالاً للتنفّس.. وعندما بدا على روكيلور أنه مرتاح يحلم بالنشوة أعطيت الإشارة بالرحيل، وهربنا بدون أن نقول للساهرين «تصبحون على خير».

ـ لا بدّ أن السيدة فهمت كل شيء. هل تعرف من هي؟

ـ أبداً. لا يهمّنا ذلك!

ـ أي رأس مجنون هو رأسك هذا! وماذا أكون أنا بالنسبة لك، إذن، يا غاسبار؟

ـ امرأة جميلة ولذيذة... وأظنّ أنها ذكيّة كثيراً...

ـ تقول «كثيراً»؟ هل هذه مجاملة؟

ـ أنا أفضّل النساء اللواتي لا يفتشن عن نهاية النهاية ولا يفكّرن إلا بالمتعة، ففي ذلك ما يجعلني أكثر اطمئناناً واستقراراً... أمّا أنت فإنك مزعجة أحياناً.

ـ مزعجة؟ وبمَ أنا مزعجة يا إلهي؟

ـ تحاولين دائماً التفكير بمحاكمتنا، فيشعر المرء معك بشيء من السخرية العميقة وبشيء من القلق، مما يفسد المتعة.

ـ هل تشعر شيء من هذا أنت يا غاسبار؟ فأنا لا أقاضيك ولا أنتقدك. أنا أحبك بحرارة، وهذا كل شيء.

ـ ولماذا تحبينني؟ يجب أن تختاري واحداً مفكّراً مثل سان أفريمون، أو فواتور، أو الأب ماراي، أو...

ـ أنا أحب الحديث معهم فقط، لكنهم لا يستثيرون حبّي. أما أنت فأريدك أن تحبني.

لكن كلمة « أريد» ليس لها معنى في الحب. لم يكن كولييني يحبّها أبداً إن لم تكن تفعل هي في نفسه عكس ذلك. كانت نينون تتألم بقلبها وبكبريائها. كانت تحب حتى الجنون هذا الرجل الساحر وتعطي حياتها مقابل تنهيدة فرح منه. وكانت مع هذا تراه في جانبها، في هدوئه الساخر وفي عدم تجاوبه مع عواطفها.

ولقد انتهى هو بأن نسي الطريق إلى بيتها. فجُنّت نينون وطار صوابها. فهي من أجل هذا الحبيب تخلّت عن صديقتها ماريون ديلورم وجعلت منها عدوّة لها. وها هو الآن يتركها وهي تكاد تحترق بحبه!

ولقد كانت فتيّة لا تستطيع إخفاء مشاعرها. ومرة وجدها صديق كولييني واسمه «لاموساي» يائسة بين دموعها، فحدّثته عن حبها ببلاغة أثّرت فيه كثيراً. فقال لها:

ـ سأذهب لأعيده إليك. فهاتان العينان الجميلتان يجب ألّا تبكيا!

وبالفعل فقد استطاع أن يعيده إليها. وعادت معه هذه العلاقة الحزينة، لأن الحبيب لم يكن متعلّقاً بها. وكان يخيّل إليه أنه لا يأتي إلى حبيبة بل إلى مشقّة.

وحتى تتمّ المهزلة، صارحها بموضوع زواجه القريب من إيزابيل أنجليك دي مونمورنسي. وبالطبع، فإن جميع البروتستانت الفرنسيين سشيُجمعون على تلافي هذا الرباط، ولكنه كان مجنوناً بحب هذه الفتاة الساحرة. وبانتظار قبول أهله بهذا للزواج، ذهب في مهمة إلى هولندا.

ولم تستطع نينون - وهي المرأة التي جنّت به ـ تحمّل هذه التجربة المضنية. ثم إنها أدركت أن إخلاصها وحبها لن يقوداها إلا إلى العذاب. لقد منحت أجمل ما عندها لرجل لا يستحقّ بعض ما عندها... إذن، فهي من الآن فصاعداً لن تمزج أحاسيس القلب بملذّات الجسد!

الأهواء

*

وأخيراً وجدت نينون بنفسها وحيدة، وغنية فقط بتجربتها. لقد اعتبرتها ماريون ديلورم فتاة منحطّة وجاحدة. ألم تفتح لها أبواب صالونها؟ ألم تعاملها كأخت لها، وتقدّمها إلى أنبل رجال الفكر والمجتمع؟ فهل يجوز أن تكافئها بهذه الخيانة؟

ولم تدافع نينون عن نفسها، فماذا تراها تقول؟ غير أنّها خضعت لرغبتها بدون أن تهتم كثيراً بموقف ديلورم أو بوقع عملها في نفس امرأة أخرى. ففي هذه المناسبة، كما هي الحال في كل مناسبة في حياتها، لم تتبع في طريقها سوى إرشادات غريزتها ولذّتها. إن آلام زوجة أو عشيقة صادقة أو رجل من الرجال لا تحيد بها أبداً عن عزمها، إذا هي سارت في طريق المتعة.

الآن وقد أصبحت امرأة ناضجة تفهم الرجال والعالم على حقيقتهم، أصبحت تدرك أن الوقت قد حان ليكون لها صالون خاص. فقد تخلّصت من كل أحزانها ومشاكلها وأصبحت حرّة طليقة باستطاعتها أن تستخدم كل سحرها في جذب الضيوف الكبار والتأثير عليهم، دون أن تفكّر في غضب ماريون: مضيفتها الحسناء التي علّمتها فن الحياة...

مكتبة ٢٨٧

وعلى العكس من ماريون التي تُدخل قضايا الدين في مشاعرها الخاصّة وتهاجم كل من يحاول أن يهدم الإيمان، كانت نينون حرّة الاعتقاد، بل إنها انخرطت في حزب ماجن فوضوي مؤلّف من أشخاص مختلفي الميول والطباع، كان يجد له أنصاراً على مرّ الزمن. والتفّ حول نينون بعض زبائن صالون ماريون، وكانوا من الذين يميلون إلى المناقشة الفكرية، وممّن يفضّلون هذه الفتاة على غيرها للطفها وجرأتها وجاذبيّتها وشهوانيّتها المتكبّرة. وراحوا يحلمون جميعاً بأن دورهم في الحب سيأتي، ولبث كلّ منهم ينتظر ذلك اليوم بصبر يكثر أو يقلّ حسب طبيعته.

وقد كان إهمال كوليني ولا مبالاته تجاه نينون من الأمور الأساسية التي دفعتها للثأر من الرجال جميعاً لأنهم متقلّبون خائنون متكبّرون في الحب، لا يشفقون ولا يخضعون إلا لسطوة غريزتهم، ولأنها هي عادلة ومخلوقة لتعيش على طريقتها الخاصّة. إنها شهوانيّة وقاسية ومتعطّشة للّذّة على ذوق في التبديل حسب المعنى الذي تعطيه تلك الحقبة من التاريخ لكلمة «التبديل».

وصرّحت مرة في صالونها تقول:

ـ الرجال احتفظوا حتى الآن بحقوقهم الأساسية. وابتداءً من هذه اللحظة سأكون رجلاً...

فعلت صيحات التعجّب والاستحسان. وأخذت هذه الكلمة كمثل. وفي هذه الطريق الصعبة، لم ترد نينون إلا اتباع أهوائها الخاصة. ولم تكن تريد حولها إلا أناساً محبوبين، مرحين، مفكّرين، دون أن يتصنّعوا أو يتكلّفوا. فمن الساعة الخامسة حتى التاسعة ليلاً كانت تستقبل الناس

الذين يروقون لها،ى فيجلسون حولها في صالونها اللطيف الذي تبعثرت أشياؤه هنا وهناك. ويتحدّثون ويضحكون ويقصّون قصصاً طريفة عن البلاط وعن المدينة، ويناقشون الكتب التي تصدر والقصائد التي تنشر في جوّ لطيف أنيق.

وكان أوّل المعجبين بها الماركيز دي فارد، والفارس دي ميريه المهذّب والجذاب في نفس الوقت، والمركيز الفتى دي جانزي، والمارشال الشيخ إستري الذي لم يعش إلا من أجل الحرب وحب النساء، والذي يجب أن يتابع حياته تلك دون أن تزهقه أعوامه السبعون.

وذات يوم جاء المركيز «فارد» إلى صالون نينون بقصة لطيفة حدثت في أوائل تلك السهرة وروتها له إحدى صاحباته قالت بأنها استقبلت قبله الماريشال إستري. وبما أنها انشغلت عنه في ناحية أخرى فقد عرّفته قبل أن تتركه بآنسة صغيرة جاءت لزيارتها. وبعد مضيّ خمس دقائق فقط هرعت صديقته تلك مسرعة على صيحة ذعر أطلقتها الفتاة الصغيرة عندما أخذ الماريشال في مداعبتها... فجنت السيّدة وانتزعت بالقوة الفتاة المراهقة من بين يدي الشيخ الذي انزعج من تدخّلها وانسحب!

وفيما كان المركيز يروي هذه القصة دخل الماريشال نفسه إلى صالون نينون، فما كادت هذه تراه حتى صاحت قائلة:

ـ ولكن يجب أن يحذر المرء منك يا سيدي الماريشال. وسأجلس من الآن فصاعداً إزاءك وجهاً لوه، ولن أدعك في صحبة فتاة بريئة عندي.

فقال الماريشال:

ـ أوه، ذلك لأنني لم أكن أعرفها فلم نجد ما نتكلّم عليه... وكان ذلك مدعاة للمرح في السهر ولعبث الساهرين.

ووقع اختيار نينون على الكونت دي ميوسنس. ولم يكن هذا الإختيار راجعاً لإعجابها بإيمانه... إذ أن غاسباردي كوليني كان قد قضى بمعاونة أفريمون وآخرين غيره، على ما كان قد بقي في نفسها من تعلّق بالإيمان والدين. ومنذ ذلك الحين أخذت حياتها الماديّة تستقرّ على وجه ثابت صريح في الحياة. وقد تجرّأت ذات مرّة وقالت:

ـ الأديان ليست بأكثر من تخيّلات، وليس هنالك حقيقة فيها جميعاً.

لقد كانت فتيّة وذكيّة، وكان ميوسنس هو الخليل الوحيد الذي يهمها أمره. ولقد منحته لخبرته وبراعته لقب «الأستاذ الكبير في فن الحب». والحقّ أنه كان بارعاً في إعطاء مثل هذه الدروس.

وكانت مدام دي روهان تعلم الشيء الكثير عن قصة هذا الغرام الجديد بين دي ميوسنس ونينون. ويجب القول بأن مدام روهان لم تكن عاشقة مبتذلة، وأنها عندما ظهرت في المجتمع الأول مرة، كانوا يتحدّثون عنها كامرأة حكيمة وعاقلة في بلد مسموح فيه بكل شيء. وعدا ذلك قد كانت تتميّز بصفة غريبة: فهي تحب أن تُضرب وأن تردّ الضربات!

وقد خجل ميوسنس، عاشقها المميّز، من ضراوتها واعتذر قائلاً لأصحابه: «لقد قدّمت في سبيلها كل ما تستطيع إمكاناتي». لكنه الآن سيتجاوز الحدّ الأخير الذي كان قد وقف عنده. وفي أحد الأيام، قالت له مدام روهان بمناسبة حفلة راقصة أُقيمت في «اللوفر»:

ـ أنا لا أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة وأمنعك من الذهاب إليها بدوني!

ـ بالتأكيد يا جميلتي، لكنني لا أحب أن أتلقّى أوامراً من أحد.

ـ إن أحببت أو لم تحب، فأنا أمنعك من الذهاب للحفلة..

بالطبع فقد ذهب للحفلة. وعندما رجع لزيارة الدوقة لم تقل كلمة واحدة، بل إنها أظهرت رقّة ولطافة. حتى إنه إذا تمدّد في السرير راحت تكيل له الضربات بقبضتها بقوّة وبعنف، ولم تزل تفعل حتى تركت خليلها المسكين مطروحاً بلا حراك على السرير. وراح هو يستسنح الفرصة المناسبة ليردّ لها الكيل كيلين حتى إذا تمكّن من ذلك ضربها ضرباً مبرّحاً وأجبرها على إعطائه مئتي ألف ليرة! فلقد كانت مدام دي روهان تريد عشّاقاً ذوي بأس ومقاومة.

ولم يكن ميوسنس ماهراً في المناقشات والأحاديث، بل إنه كان يتلجلج في الكلام بشكل يستدعي الضحك. ومرّةً، في أوتيل رامبوي، راح يتحدّث برهة من الزمن فإذا بالسيد «فواتور» يسأله قائلاً:

ـ فاتبتلعني جهنّم يا سيدي إذا كنت قد فهمت حرفاً واحداً ممّا ذكرته! هل تتكلّم دائماً هكذا؟ فلم يغضي ميوسنس أبداً بل طلب المعذرة قائلاً:

ـ عليك يا سيد فواتور أن تراعي أصدقاءك قليلاً.

فأجابه فواتور قائلاً:

ـ وحقّ السماء إني أراعي شعورك منذ وقت طويل حتى بدأت أسأم!

ولكن عندما اختارته نينون من بين الكثيرين، كانت تعلم بعدم طلاقته في الكلام بالنسبة إلى حبيبها القديم كوليني. ولكنّها كانت تعلم بأن نقصه في هذه الناحية كان يعوّضه كثيراً بأناقته ورشاقة حركاته التي تستطيع أن تساعد جيّداً في التعبير عمّا في نفسه، وقوّته التي كانت تمنحه هيبة واحتراماً.

وكثيرات هنّ النساء اللواتي أحببن فيه هذه الصفة الأخيرة، وخصوصاً ماريون، بعد مدام دي روهان، التي كانت تعشق المال حتى الجنون ومع ذلك فلم تطلب منه شيئاً، بل كثيراً ما كانت تعطيه.

كان يغمر نينون بجوّ من الهدوء. وكانت عيناه بالنسبة لها مفتاح التعبير الصادق عمّا في نفسه عندما كانتا تتألّقان حيناً بعد حين، وخصوصاً إذا كان هنالك فوز جديد في ميدان الحب والنساء.

ولمّا كانت نينون امرأة تأكلها الشهوة للحب العنيف فقد تعبت معه كما تعب هو كذلك، وخفّ ما عندها من الحماسة والرغبة. وبعد أن تحرّرت من رغبتها فيه، صارت تبتسم له في شيء من السخرية. ذلك لأن هذا القاهر الكبير الذي ترتمي على أقدامه الكثيرات من النساء، كان عنده ناحية ضعف يعرفها أصدقاؤه: فلقد كان يرتعد من الخوف أمام رؤية الخنزير البرّي، وينتفض كالدجاجة الهاربة. وكان الماريشال دي كليرامبو يقول هازئاً:

ـ ألا يصبح المرء أكثر شجاعة في القتال إذا قدّم له السيف في يد ورأس خنزير في يد أخرى!

بعد ذلك سمعت نينون أن دي ميوسنس يتملّق منذ زمن وبدون فائدة، مدام دي كورسيل من حي فارجينا، أمّا مدام دي لامبرت المشهورة، التي رفضت محاولاته جميعها فمني بفشل لا مثيل له.

ومرّة قال روكيلور لنينون:

ـ هذا ال«ميوسنس» الشجاع الذي لا يستطيع أحد أن يقاومه... ركع ثلاثة أشهر أمام باب بيت حقير في أرذل حي هو حي مارجينا المفتوح للجميع. فقالت نينون:

ـ لم يستطع دخوله لأن ازدحام الزبائن فيه قد سدّ بابه!!

وبعد أن تخلّى ميوسنس عن نينون، وجّهت أنظارها نحو السيد «دي جانزي» (الفارس الصغير) الذي كان مشهوراً بأبيه الماركيز دي جانزي الذي تجرّأ على مغازلة الملكة جان النمساويّة، والذي بالغ في مغازلتها حتى اضطرها إلى أن ترميه من النافذة! لكن هذه الحادثة منحته هالة من الشهرة. وكان ابنه محبوباً وجذّاباً، رقيقاً أحياناً وأحياناً قاسياً، وحالماً في أغلب ساعاته شارد الذهن، غامضاً. ولكنه عندما يعود للواقع تكتسب عيناه بريقاً حادًّا كما تكتسب شفتاه عذوبة. وكان سريع الحركة في تلبية خدمات عشيقاته، وذا بأس شديد عند خوضه المعركة.

وحاولت نينون عبثاً أن تخفّف من متناقضاته أو تلائم بينهما. ولمّا أخفقت في محاولتها هذه، تركته إلى الفارس دي ميريه الذي كان ينتظر دوره هو أيضاً...

كان هذا الأخير يختلف كل الإختلاف عن الأول برقّته وجاذبيّته التي لا حدّ لها عند تحدّثه عن نفسه. ولقد دفعه غروره الظريف مرّة إلى ان يكتب قائلاً: «باسكال وغيره ما كانوا ليستطيعوا شيئاً لولا وجودي أنا» !

وكان فقيراً شديد الفقر ولكنه كان يحلم بأن يفوز بحب جميع النساء بسلطان فكره وفلسفته.

كان لا يدّعي «أكثر» من أنه «الرجل الشريف الكامل». وكان يحدّد فلسفته في ذلك بقوله: « يجب ألّا تقول او تفعل إلا الخير». وكان يتقن سبعاً من اللغات الحيّة والميتة، وكان يملك شيئاً من اللطافة والظرافة...

واستطاع دي ميريه أن يحوّل نينون عن هؤلاء المعجبين بها من الشباب

الغرّ الذين يذهبون إلى الحب وكأنهم ذاهبون إلى معركة. وكانت هي شديدة التلهّف، من ناحية فنيّة على الأقل، لمعرفة أهليّة وإمكانات هذا المتحذلق، صانع الجمل والعبارات الأنيقة المتأدّبة.

وكان هو معجباً بجسمها وتكوينها، لكنه لم يكن أبداً مسحوراً بها، لأنه كان مسحوراً بنفسه... وقد كتب مرّة يقول:

ـ «الآنسة دي لانكلو لطيفة الشكل أنيقة المظهر، تعتني بكلّ ما تعمل أو تقول، وتحسن العزف على العود وإنشاد الشعر، وترقص جيداً وبمهارة. وقد تنطق أحياناً بكلمات رائعة!»

لقد جمع كل بلاغته للفوز بها. وتهيّأ لنينون أنها ستكسب شيئاً من مخالطتها هذا الرجل الذي يعلّق على أعمال الجميع وعلى أقوالهم، وينتظر الناس أقواله بفارغ الصبر. فهو لا شكّ يعرِف أشياء كثيرة تجهلها هي ! ولكن أمن المحتمل أن يبوح لها بحبه؟ وفي أحد الأيام منحته نفسها بالبساطة ذاتها التي تتّخذها حول كل أمور الحب، مما شوّش على الفارس نظرته غلى الحب. لذلك لم تنجح التجربة، ولم يعد هو، بعد أن أسدلت الستائر، ذلك العاشق الولهان الذي تريده نينون. كانت تحبّ السموّ في الكلام والمناقشات الرقيقة والأفكار الجميلة، لكنها عند الحب كانت تصبح فجأة في عالم آخر... حيث لا تنفع الكلمات ولا المناقشات النظريّة.

وانتظرت أن يبوح لها دي ميريه بغرامه، ولكن انتظارها ذهب سدىً. فسئمت نفسها بين ذراعيه وتنهّدت في سرّها تقول: ـ « أين أنت إذن يا ميوسنس الشجاع»

لقد استنتجت نهائياً أن من الحكمة فصل الفكر عن الجسد. فقد كان ميريه لطيفاً ورقيقاً في قضاء ساعاته في المجتمع، وكان يملك كل المقبّلات لإمتاع من حوله. لكن في السرير... هناك عليها أن تفتّش عن العشّاق البسطاء الماهرين في المداعبة.

وقرّرت أخيراً أن تفسخ علاقتها مع ميريه، هذه العلاقات التي كانت تجربة عقيمة، لأن نينون في الحقيقة لم تكن أكثر من امرأة بربرية في طباعها الصريحة، ولذا لم تشفق أبداً على الرجال الذين لا ينالون إعجابها.

وفي نهاية تجربة أخيرة تركتها أكثر لا مبالاة به، صرّحت قائلة:

ـ من الآن فصاعداً، أيها الفارس، علينا أن نقتصر على الأمور الفكريّة حيث يمكنك أن تحلّق ويمكننا أن نجد سوية لذّة كبيرة. وبالرغم من أنه قُرص بقساوة، غصب نفسه على الإبتسام وقال:

ـ يجب أن يكون المرء فيلسوفاً عندما يحبّك يا نينون، لأنه يحرجك جداً عندما لا يفكّر نحوك بما يجب التفكير به.... فقالت:

ـ أنا أدري بأن هناك نفوساً جديرة بأن تجد في الحب تحريضاً للإستزادة منه إلى أقصى ما يمكن، ولكنني لست من هؤلاء.

ـ أنت رهيبة ومتقلّبة...

ـ أنا يعجبني ذلك. ولماذا تريدني أن أخفي ما بنفسي؟ أنا متقلّبة مثل الرجال. وأنا لا أعطي المتعة من الأهمية أكثر مما يجب أن أعطيها، ولكنني آخذها عندما تروق لي بدون اهتمام بما يسمّونه الإخلاص!

ـ إذن فأنت لا تريدين أن يدوم الحب؟

ـ هذا ليس بسؤال! رغبتي تموت بسرعة وأحياناً بدون سبب... ففجأة، وبينما أنهض من فراشي، أو انا أعانق حبيباً، أشعر بأن رغبتي قد انتهت، وعند ذلك أتحسّس نفسي خفيفة لا يربطني شيء...

ـ كما أنت في هذه اللحظة، مثلاً؟

ـ بالضبط. أنا الآن حرّة في التفتيش عن لذّة جديدة. وعلى هذا فإني أجد أنه ليس هنالك ما هو أجمل من هذا الاستمرار في أفراح الحب، بالرغم من أنها هي ذاتها دائماً.

فانحنى «دي ميريه» دون أن يقول شيئاً. وكأي واحد من الآخرين الذين أبعدوا عن مخدعها بعد أن استنفدوا كل ما يمكن أن يقدموه، عاد إلى صفّ أصدقائه. ذلك أن هذه المرأة المدهشة تملك فن الإحتفاظ بصداقة جميع عشّاقها الغابرين. ولأنّها في الحقيقة لم تكن قاسية إلا مع عشاقها، بينما كانت مع أصدقائها صبورة جداً. كانت نينون تعيش هكذا بلذة أبيكوريّة تقرأ كثيراً وتجمع حولها الكثيرين من رجال الفكر الذين كانت علاقتهم بها تتوسّع شيئاً فشيئاً، لأنها شهرتها كانت تزداد يوماً بعد يوم، ولأنها كانت تملك جميع المغريات فضلاً عن ثقافتها، فأنت تجد نفسك فخوراً إذا استقبلتك ومسحوراً إذا دعتك إلى العشاء. فلقد كانت حرّة تماماً في تصرّفاتها وكنت تشعر معها بهذه الحريّة. ومع أنها لم تكن تقدّم لزوّارها غير الماء القراح وأحياناً قليلاً من الشامبانيا، فقد كان زائرها يشعر بأنّه سكران.

وكانت تأخذ أصدقائها بدون أسرار، وفي أحد الأيّام قالت أمام جمع منهم بابتسامة واضحة:

ـ أنا الآن في هواي العشرين... وسأتابع هذا المسلك!

فأُعجب كل من في صالونها بهذه الجرأة وهنّأوها على هذه الصراحة. أمّا هي فقد تابعت كلامها تقول:

ـ ولماذا عليّ أن أخفي ذوقي بالمتعة التي أحب، وهي: متعة تبديل العشّاق؟

وفي إحدى الأمسيات أتى بعض أصدقائها إليها وكان فيهم لويس دي بوربون، ودوق إنجهين الجنرال اليافع المثقل بالإنتصارات وأكاليل الغار. وكان هذا الأخير قد سمع عنها كثيراً، عن جمالها وعن الصفة الفكريّة التي تتميّز بها، حتى أنه تمنّى التعرّف بها. وكان هو نفسه بشعاً بدون شكّ، ولكن هل هنالك من بشاعة ظاهرة عندما يكون هناك عبقريّة؟ ثم إنه كان مثقّفاً يحبّ الأدب ويعشق الكتّاب الموهوبين ويصبح جذّاباً بهذا الحب وهذا العشق. وكان إنجهن قد أحبّ فتاة صغيرة عذبة تدعى مارت لوفيجان، ولكنه لم يكن لديه من السلطة على نفسه ما يسمح له بالزواج بها. لأن الأمراء في ذلك الزمن لم يكونوا ليخضعوا لنزوات قلوبهم. ولقد اتّفق والده والكاردينال ريشيليو على أن يزوّجاه بإبنة أخ الكاردينال كلير ـ كليمانس دي مايه بريزيه.وزوّجاه بها قسراً. أما هو فقد أبغضها بعنف وأظهر لها كل نفور، فيما كانت المحبوبة الصغيرة المتروكة تقضي أيامها في الكنيسة وبين الصلوات تبحث عن العزاء لآلامها.

وأحاط النساء بالدوق إنجهن وأعجبن به ومنحنه أنفسهنّ بينما كان هو يهملهنّ بتكبّر، لأنه كان يحب نفسه والأدب والقتال، لاغير.

غير أنه لم يلبث أن اجتذبته النساء. ومع أنه كان يكره الحب، فقد ارتفع صوت أحد المغنيين في عصره بهذا المقطع:

«المرأة الجميلة تقعد في الأرض،

«صارخة: إليّ يا لويس دي بوربون!

«لله كم هو عظيم!»

ولكن هاهو يأتي إلى عند نينون بفضول وتطفّل، فتستقبله نينون معجبة ببشاعته الغريبة التي تشبه بشاعة عصفور في مصيدة. وتحت تأثير عنفه الحادّ ونظراته القاسية، تمنّت لو كانت باستطاعتها أن تفوز به.

ولم يطل الإنتظار... وهذه المرة لم يهرب كعادته، فعندما انصرف الأصدقاء بلباقة بقي وحده مع نينون.

وكانت نينون ترجو كثيراً من هذا اللقاء، فإنجهن أحد الرجال القلائل الذين استثاروا مخيّلتها.

وبلطافة وبدون مواربة، صرّح لنينون بأنه يجدها شهيّة. ولم يفه بهذا التصريح غلا بعد مشقّة. واستسلم لنعاس الجنديّ الهادىء ممّا كان مدعاةً لتسلية نينون.

وتحت أضواء الشموع التي بدأت تنطفىء في الشمعدان واحدة إثر الأخرى، راحت نينون تتأمّل هذا الجسد الممدود قربها والذي تشهّته طويلاً... وتذكّرت إذ سمعت كلمة «ماريون ديلورم» عن ريشيليو الذي كانت له عشيقة في وقت ما، وهي: «بعد أن ينزع عنه السروال والثوب الأحمر لا يعود الكاردينال شيئاً عظيماً»! وباستطاعتها الآن أن تقول نفس الشيء، فإن هذا البطل ليس الآن بالشيء العظيم!

وتبسّمت في العتمة. وعاد إلى بالها مثل لاتيني عن الرجل الكثيف

الشعر، فضحكت! وعندما استفاق في الفجر، وبينما هو يهمّ بالنهوض، راحت تداعب بيدها الرشيقة صدره الضخم المنفوخ مثل الدرع، وصرخت بسذاجة:

ـ آه يا سيدي! كم أنت قوي.

فردّد في نفسه: «هذه هي المرأة الأولى التي قالت لي شيئاً ما، في حين لم تقل لي الأخريات شيئاً»

وبالتالي شعر بميل إلى نينون، وبقي حتى ساعة موته يتردّد على صالونها مع أصحابه.

هذه التجربة علّمت نينون شيئاً آخر، هو: أن محارباً كالصاعقة قد يكون عاشقاً سيّئاً، وأنه، في هذه الناحية، لا تجديه كل أكاليل الغار التي ربحها.

أحزان وأفراح

كانت نينون تحب التنزه بعد الظهيرة، في الساحة المناسبة، في ساحة «بلاط الملكة» وهي مكان للمواعيد واللقاء بين المتدلّلات من النساء وبين الأسياد الصغار والضباط، حيث كان هؤلاء وهؤلاء، يأتون بحثاً عن الحوادث والمشاكل المثيرة!

كان النساء في عرباتهن المبطّنة بالمخمل، يتخلّين عن كلّ حياء ويرحن يعقدن المكائد والدسائس والأحابيل. وكان الفرسان يتجوّلون حول البوّابات يتعرّفون وراءها إلى الجميلات اللواتي يبتسمن بأعينهن اللامعة وراء المراوح المتحرّكة، وترتفع أيديهنّ البيضاء ملوّحة تلويحاً جميلاً، فيطبع العشّاق ذوو الأشواق عليها شفاههم من بعيد... وكان يجري بينهم دائماً مثل هذا الحوار:

ـ أنت أكثر السيّدات طهارة، فقد طالما حلمت بك في لياليّ الاضية. كنت أبحث عنك يا سيّدتي، ترى هل فكّرت أحياناً بي أنا، الذي يلاقي الآلام من أجلك؟ إذن، في أيّ وقت ستسمحين لي بأن أموت على قدميك؟ وكلمة «على قدميك» كانت كليشيه شائعة جداً في ذلك المحيط. وعلى طول الضفة التي تحاذي نهر السين، عند غروب الشمس، كان يجري أيضاً مثل هذا الحوار، تقول المرأة:

ـ كم هو جميل النهر اليوم! فيجيبه الرجل دون أن تهوله المبالغة، يقول:

ـ عندما تكونين أنت موجودة لا يعود لأيّ جمال آخر وجود!

وإذا سخرت منه السيدة الضاحكة ورفضت أن تنصاع له، تركها الفارس نحو بوابة أخرى ليعيد الكرّة مع امرأة جديدة. وهناك دائماً بعض النساء الجائعات للحب اللواتي لا يرفضن طلباً، ويردن من كل قلوبهم المضيّ حتى النهاية.

وماذا يهمّ الأغلبيّة من حقيقة هذه «العواطف» التي يتظاهرون بها؟ فالحركات، على الأقل، تكتسب دائماً طابع الصدق والإخلاص، ممّا يدخل البهجة على القلوب لقد كان هذا العصر المسيحي الكاثوليكي المتعصّب في الظاهر، نهماً شديد النهم للشهوة والإباحية، ولممارسة جميع المتع الممكنة.

*

راحت نينون تتقدّم في ذلك النهار على كرسيها المبطّنة بالحرير المطرّز بالخيطان الصفراء التي تتوهّج كالضياء. وكان الحمّالون يسيرون بها في خطوات منتظمة والكل فخور بحمله هذه المرأة المشهورة التي يعرفها الجميع والتي كان الرجال يحيونها باحترام.

وكانت بثوبها الأبيض المزيّن بالزهور يانعة كباقة زهر ربيعية، وبين وقت وآخر كانت تلقي نظرة على وجهها في مرآة حملتها بيدها، لتتأكّد من أن نظام جدائلها لم يتغيّر، ثم تبتسم في عاطفة المنتصر. لقد كانت سكرى بإحساسها بالشباب والفتوّة، وبنهمها الشديد للحياة، وبأن ترى نفسها ترضي حتى أصعب الأهواء انقياداً!

وعندما أزاحت ستائر المحمل التفّتا، انحنت برأسها الجميل قليلاً وإذا بها تلتقي برجل راح يراقبها بصمت. وقد كان واحداً من الذين قضوا معها ليلة حب أو عدّة ليالي. والغريب في الأمر أنها استطاعت أن تتذكّره بسرعة فائقة.... من حركة... من همسة... من خطوط ارتسمت على الوجه بسرعة.. لقوة ملاحظتها وذكائها المدهش.

وكانت تتلقّى نظرات النساء المثبتة عليها عدائية أحياناً ولطيفة أحياناً أخرى، فجرأتها لم تكن تعجب الجميع.

وكان بضعة فرسان يرافقونها كحرّاس. ودارت الأحاديث حال وصولها إلى البوابة، فأخبروها بكل جديد من الفضائح. ومكان أطرفها حادثة أصابت ماريون ديلورم ليلة البارحة وفجّرت الضحكات في كل مكان. قال متحدّثٌ: كانت ماريون قد أعطت موعداً لـ«غرامونت» ، لكنها نسيت أنها على موعد مع الدوق «بريساك» الذي يدفع لها بكرم. وإذ تذكّرت هذا الموعد، أسرعت بكتابة ورقة إلى غرامونت معتذرة عن اللحاق به لصداع في رأسها... فقالت نينون في سخرية:

ـ وهل كان غرامونت أحمق لدرجة يصدّق معها أن صداعاً يصيب امرأة؟!

ـ لا بالطبع، فقد فهم بأن الصداع كان حيلة سياسية، لأنه كان قد تركها قبل ساعتين كالوردة الناصعة تفيض صحّة وحيويّة. وعند هبوط الليل راح يتمشّى في «الساحة الملكية...» وفجأة لمح رجلاً ماشياً على قدميه متسلّلاً في تمهّل وخفّة. وعندما عرف بأنه الدوق دي بريساك أدرك وجهته... وفي الحال قفز بحصانه إلى جواره بسرعة، وإذ حاذاه قال شارحاً الأمر: «في الحقيقة... أنا بحاجة لمساعدة ضرورية. لقد أعطيت

موعداً لامرأة هنا في هذا المكان. وبما أنني سأعتذر لها لأن موعداً آخر أكثر أهميّة اضطررت لإعطائه الليلة، فهل تعيرني معطفك قليلاً من الوقت وإليك بحصاني تتنزّه عليه؟ بضع دقائق فقط وأكون قد انتهيت، ولكن لا تبتعد كثيراً، أرجوك...»

ورضي بريساك مدهوشاً من هذه المفاجأة، وراح يتنزّه على الحصان حول «الساحة الملكيّة». وتغلغل غرامونت في الظلّ واختفى عن عينيه. وعند وصوله إلى منزل ماريون، طرق الباب ثم دفع بالمعطف الذي أتى به لهذه الغاية، إلى الخادمة التي سمحت له بالدخول إلى القاعة حيث وجد ماريون في أحسن حالات الصحة والعافية متمدّدة على الكنبة متعرّية تقريباً من كل ثيابها ومتّخذة أكثر الأوضاع المغرية المهيّجة للحب. فقال وهو يراقب دهشتها: نعم يا جميلتي، ما أخفّ الصداع الذي يزول سريعاً وما أحسنه! فأرادت أوّل الأمر أن تأتيه من فوق، وقالت: «أنت مخطىء، فأنا لا أزال متوعّكة، هل تريد أن تنسحب وتتركني أرتاح في فراشي؟ فأنا أكاد اموت من النعاس!» فقال: تريدين أن ترتاحي في فراشك وحيدة بالطبع! لا، أنا لست بأحمق، وأنا ادري أن تجمّلك هذا لم يكن بدون سبب. وعندما رآها تغضب أوضح فكرته قائلاً: «بريساك لن يأتي، تأكّدي من ذلك. فلقد وجدته في الطريق وخلقت له مهمة لطيفة، ولهذا فهو لن يكون مستعدّاً لأن يزورك» قالت: يا للسماء! هل قتلته؟ هل جننت؟ قال: أبداً، فنحن أخلص الأصدقاء، والدليل على ذلك أنني أعرته حصاني ليتنزّه عليه بينما أعارني هو معطفه! فانفجرت ماريون بضحكة مدويّة وقالت له: يا فارسي اللطيف، أنت غريب لدرجة لا أستطيع معها إلا أن أغفر لك كل ذنوبك!

فسألت نينون محدّثها تقول، وقد أعجبتها القصّة: وماذا فعل بريساك بعدئذٍ؟

ـ لقد دار على الحصان عدّة ساعات، ولم يرد تركه ضمناً بشرفه وحفظاً للعهد الذي قطعه... ولم يستطع أن يلاقي ماريون تلك الليلة. ولكنها على كل حال لم تخسر شيئاً.

فقالت نينون: إن غرامون هذا شيطان خبيث!

والتمعت عيناها وراء قناع الدنتيلّا. وتألّقت أسنانها وراء شفتيها الحمراوين. وفجأة علّقت نظراتها بالماريشال دي غرامونت، والد الفارس الذي كنّا نتحدّث عنه، وعندما حاذت عربته البوّابة، أشار لأحد الضباط إشارة فإذا بشاب أنيق يترك أميراته من حوله لخادمه ويسرع مهرولاً نحو الماريشال. يا لمشيته ما أروعها! لقد استرعى انتباه نينون وانتباهها... فاختارته لساعتها، وسألت مرافقيها تقول:

ـ من هو هذا الفارس؟ إنّ مظهره يدلّ على أنه شديد الكبرياء، ولا أظنّ أني شاهدته من قبل. فقيل لها:

ـ هذا فيليب دي مونتو – بيناك، كونت دي نافاي.

وتتابعت التفصيلات:

ـ إنه يقود فصيلة ملكيّة، وهو أسد شجاع.

ـ الملك يقدّره جيداً، والكردينال مازاران يحميه.

ـ أوه! إنه يتقدّم بسرعة... لا أشكّ في أنه سيصبح ماريشال في أحد الأيام.

وقد سرّها أن تعلم بأن دي نافاي هذا مقدّر بقدر ما هو جميل، فكتبت كلمة على قصاصة ورق وسلّمتها إلى أحد حامليها وأشارت بيدها إلى الرجل الذي اختارته... وكانت الكلمة المكتوبة هي هذه: «أنا أحب كثيراً أن أتعرّف بك يا سيدي، لما علمته من جدارتك واستحقاقاتك. كل ما قيل لي حولك أجبرني على تقدير الرجل الشجاع الفخور الذي هو أنت. هل تسمح بأن تلاقيني في مخرج الساحة؟ سأكون بانتظارك.»

نينون دي لانكلو

وأخذ نافاي بما قرأ وخصوصاً عندما لمح التوقيع. فالمحظيّة الفنانة كانت قد أصبحت شهيرة، لكن في الأوساط الرفيعة فقط. فالجميع يعرفون أن حياتها الماديّة يؤمّنها رجال كبار يرتضون بالأقل الأقل، وأن باستطاعتها أن ترتبط بعلاقات غرامية بدون أي مقابل سوى رغبتها في من ترتبط معه. لم يكن لها واقعية ماريون ديلورم التي تمنح جمالها مقابل معدن رنّان موزون جيداً.. وعندما أدار نافاي رأسه الأشقر نحو كرسي نينون، التقى بالنظرات السوداء وبالابتسامة التي لا تقاوم فابتسم بدوره وهو يلقي التحية قبل أن يمتطي الحصان.

وبعد برهة صرفت نينون أتباعها إذ لمحت نافاي يتقدّم نحوها فوق الحصان المتكبّر. ولما اقترب منها قال لها:

ـ سيدتي، قصاصتك وصلتني ولي الشرف أن أتعرّف بك.

ـ لماذا إذن لم تأت لعندي؟ أنت تعلم ولا شك بأنني أستقبل جميع أصدقائي.

ـ قد يكون خجلي هو السبب في ذلك.

ـ الخجل! أية صفة بشعة للرجال هي هذه! إنها تغرير بالحب.

ـ وعندما الإعجاب هو مصدر الخجل فهل يبقى صفة بشعة؟

ـ لا... إذا علمت بأن الفرصة ستأتي في المستقبل لتبريرها.

ـ أنت تقولين معي إذن يا سيدتي بأن الفرصة إذا واتت حلّت محل الخجل الرغبة في...

وابتسمت نينون، وقالت:

ـ هل تقبل يا سيّدي بأن تتغذّى معي؟

ـ إنها مفاجئة لطيفة! ومن الذي يرفض الغداء مع نينون السماوية الجمال والذكاء؟

فنظرت إليه بصراحة وبدون تصنّع. وقرأ هو في عينيها أنه أعجبها.

وهكذا قادته معها إلى شارع «النجمات الثلاث» حيث تقطن منذ زمن. وكان الغداء رائعاً: عاشق مقابل عاشقة. أسخف العبارات تأخذ عندهما معنى عميقاً ومدهشاً لأنهما لا يفكّران إلا بالساعة التي تلي... ككل بداية علاقة بين رجل وامرأة. كل شيء كان يبدو رائعاً لهما وكأنهما يعيشان في حلم. وخصوصاً نينون التي كانت تجد عند ذاك الروعة واللطافة والسحر في أقل حركاته وأبسط كلماته.

الأطعمة كانت بسيطة لكنها شهيّة، والخمر زاد من حرارة وحمية نافاي. أما نينون فقد ابتلعت عدّة جرعات من الشمبانيا مع الماء. فقال نافاي:

ـ أي شراب كئيب هو هذا! إنه لا يحرّض أبداً على اللذّة.

ـ كن مطمئناً، فانا لا أشربه لذلك لأن مخيّلتي كافية في هذا المضمار... فهي تقوم دائماً مقام المقبّلات.

فقرّب نافاي كرسيه منها وقبّل يدها ووجهها وعنقها. وتلاقت شفاههما، وهاجمهما الدوار. وبسرعة وحميّة أمسك بذراعيها محاولاً جرّها إلى الغرفة المجاورة. لكنها تركته يدخل وحده ثم ذهبت إلى غرفة الزينة حيث تعطّرت وتطيّبت ومشّطت لها الخادمة شعرها الناعم الطول، ذلك أن للحب عند نينون تقاليد متّبعة، ثم صرفت الخادمة قائلة لها:

ـ ليلة سعيدة يا مارتينا، باستطاعتك الآن أن تنامي.

ـ ليلة سعيدة يا سيدتي.

وراحت تتأمّل وجهها وعينيها الساحرتين، ثم تذكّرت أن في الغرفة المجاورة من ينتظرها فابتسمت، وكانت تعلم أن في تأخّرها عنه يزيد في حمّيته واندفاعه. وعندما فتحت الباب إلى مخدعها واقتربت من السرير وجدت رأسه الجميل على المخدّة وعيناه مطبقتان وهو مستغرق في نعاس كنعاس الجندي التَعب. فدُهشت وقالت في نفسها: هذا غير ممكن!! لقد كانت تتصوّر بأنه يتحرّق شوقاً في انتظارها، ولكن ها هي تجده نائماً كالخروف. هل نسي مضيفته الحسناء؟ أنسيها هكذا، في برهة انتظار قصيرة؟

وفكّرت بأن تستدعي الخدم لرميه في الشارع. وفكّرت كذلك بأنه يستحق الضرب. فكم سيضحك منها أولئك الذين يحاولون الفوز بها وهي تدفعهم عنها كالذباب. سيضحكون كثيراً إذا علموا بموقفها هذا.

ولكن نوم نافاي الهادىء المطمئن هدّأ من غضبها... وراحت تلوم نفسها على تركه وقتاً طويلاً لوحده، فلا بدّ أنه كان تعباً من ركوبه الطويل للحصان... لكنها كانت في حالة من الخزي لا تسمح لها إلا بالتفكير ولو بنوع من الانتقام المضحك...

وعندئذ خرجت من الغرفة على أصابع قدميها حاملة معها ثياب الزائر الجميل وسلاحه.

وعند الفجر كان نافاي ما يزال نائماً عندما أيقظته ضجّة وضوضاء مرعبة. ففتح عينيه، وقبل أن يعرف أين هو وجد ضابطاً نحيفاً واضعاً السيف بالقرب من عنقه. فصرخ بدون وعي يقول:

ـ سيّدي، أنا من رجال الشرف في العسكريّة، وبإمكانك ان تطلبني للمبارزة.

وعندها تعالت ضحكة صاخبة: إذ أنها كانت نينون ذاتها وقد لبست ثياب ضيفها الضابط وتقلّدت سلاحه! وقالت وهي تضع السيف على الطاولة:

ـ آه يا سيد نافاي! ألم تخجل من نفسك؟ أية ليلة لطيفة سأذكرها لك!

وعندما أفاق جيداً وتذكّر وضعه المخزي صاح يقول:

يا للسماء! ثم راح يمرّر أصابعه على شعره الأشقر المبعثر! وتابع قائلاً: لقد نمت! في أية ساعة نحن الآن؟!

ـ إنها الرابعة صباحاً!

ـ آه! يا نينون، أنا حقاً أستحقّ الشفقة ولست أهلاً لحظي الطيّب.

ـ لم يزل عندك الوقت لتكفّر عن خطأك ، فالنهار لم يطلع بعد.

وأزلفت نفسها بين ذراعيه. فقال:

ـ نينون، يجب أن تكوني صبورة.

ـ صبورة؟ لأنتظرك منذ البارحة؟ فتوسّل إليها قائلاً:

ـ نينون، كوني رحيمة! أنت جميلة جداً...

ـ على كل، جمالي لا يضع العجائب ولا يوقظ الأموات.

ولم تكن حتى ذلك الحين ذات حظّ طيّب مع الشقر، لذلك اعتبرتهم بصورة نهائيّة أقل استعداداً من السمر. وراحت تتساءل في سرّها عن أقل السمر حظاً وأكثرهم فشلاً معها.

لقد وجدته بدون تعب: إنه بيار دي فيلار.

كان جميلاً جذّاباً ظريفاً ومعروفاً في تلك الحياء حيث يتجوّل أبداً باحثاً عن أشهى النساء اللواتي كنّ يسمينه فيلار ـ أورووندات... ذلك أن أوروندات هذا كان البطل الذي لا يقاوم في رواية كساندر. لكنها بتقدّمها في الحياة وبتجاربها، لاحظت أن الفصل الشاعري الذي تهيّئته أذهان الناس لا يكون في الواقع إلا حلماً وخيالاً. أما الرجل الأنيق اللطيف المفكر فإنها تستهويه بشغف مدّة من الزمن قصيرة، لا غير!

فبيار دي فيلار كان يملك كل ما تطلّبه النساء الجميلات عادة من الرجل. وقد كنّ دوماً يحطنه بحب يشبه العبادة. وكان رفاقه يتحمّسون له عند دخوله معركة ما.

وهذه المرة كانت نينون مكتفية تماماً. فإنه لم يكن لديها أية حاجة

لمقابلة بطلها بالأبطال الخياليين لتمجّد نفسها، كان كاملاً بذاته، وبإمكانه أن يرضي كل أهواء عشيقته.

*

كانت حرب «الفروند» بين أنصار الملكة جان النمساوية والكاردينال مازاران من جهة وبين أنصار البرلمان من جهة ثانية، مزّقت فرنسا. وكان كل أصدقاء نينون من الجنود ، أعوان مازاران أو خصومه، قد دخلوا الحرب في شوارع المدينة أو خرجوا إلى الضواحي أو المقاطعات. ولم يعد هناك نظام في العاصمة. واستغلّ الفوضى كثير من اللصوص والبائسين وقطّاع الطرق للاعتداء على المارّة بدون مراقبة الشرطة وأصبحت «الساحة الملكيّة» الأنيقة مسرحاً لاجتماعات الثائرين ضدّ الحكم. وبين حناياها وُلدت «المازاريناد» وهي مقطوعات شعريّة هجائيّة ضد الكاردينال مازاران. وكانت تباع في الليل وفي الساحة نفسها حيث تطبع سرّاً. وعمّ الفوضى كل مكان والبؤس خيّم على المدينة. وباعت النساء الشريفات أجسادهن مقابل الحصول على القليل من معيشتهن حتى أن المحظيات والغواني هربن إلى خارج المدينة عندما انخفضت أسعارهن إلى مستوى متدنّ...

أمّا صالون نينون فقد فرغ من الزبائن مما أوقعها في الحيرة والضياع. لكنها قرّرت البقاء في باريس طالما أن بيار دي فيلار سيبقى فيها، وستتحمل من أجل ذلك الفوضى والغوغاء: مثار فزعها ورعبها الدائم. العيش في المخاطر لم يكن أبداً قسمتها. فهي تتمنّى عيشاً مطمئناً هادئاً، وأناساً طرفاء يحيطون بها. وإذ أخبرها بيار دي فيلار ذات يوم بأنه سيرسَل

إلى ليون في مهمّة قالت في دهشة: هذا غير ممكن! لن تذهب وتتركني وحيدة في هذه المدينة المرعبة! لا أستطيع ذلك مطلقاً.

ـ ولكن ماذا باستطاعتي أن أفعل؟ لقد تلقّيت أمراً بذلك وأنا مجبر على تنفيذه. فتوسّلت نينون تقول:

ـ إذن خذني معك، فالضواحي لا تزال هادئة، وهناك سأكون أكثر اطمئناناً، وخصوصاً إذا كنت بجانبي...

ـ آخذك معي؟ مستحيل! ومن أنا حتى أذهب إلى المعركة ويديّ بيد معشوقتي؟

ـ سأذهب أنا قبلك... لكننا لن ننفصل أبداً. سوف تزورني هناك من وقت لآخر، أليس كذلك؟

ـ هذا محض جنون ، لديك فكرة خاطئة يا نينون عن وضعيّة المقاطعات خارج العاصمة وعن طرق الخطرة، والغابات... فالمسافرون يُقتلون غالباً ويُنهبون، وقلّما يخلو طريق من العصابات وقطّاع الطرق الذين يتربّصون بالعربات وبالفرسان المنفردين...

ـ هذا سبب آخر يدفعني للخروج معك يا بيار، فسأقاتل بجانبك اذا اقتضى الأمر!

ـ أنت رومنطقيّة في أحكامك أكثر من اللازم! أنا أفضّل ألّا أراك تقاتلين إلا في معاركك اللطيفة... افهميني جيداً يا نينون: أنا لا أستطيع أن آخذك معي... ذلك شيء مضحك وخطر... أنا أسمع كثيراً في هذه الأيام قصص المسافرات المذبوحات على الطرق وهنّ عاريات. لن أعرّضك

أبداً لخطر كهذا. كوني عاقلة وابقي هنا وأغلقي منزلك جيداً فالحرب عمل الرجال فقط.

وأخذها بين ذراعيه وضمّها إلى صدره قائلاً:

- وعند عودتي سنرجع إلى حياتنا الغرامية من جديد... وسيحبّ واحدنا الآخر أكثر من الآن!...

ذلك لأنه كان مشغوفاً بهذه العاشقة الجميلة إلى حدّ التقديس.

وتركها بعد أن تأكّد من قبولها لفكرته. فامتطى جواده وهرول على طريق ليون وسيفه إلى جانبه وغدّارتاه في زنّاره وفتح عينيه جيّداً عند كل زاوية يجول في ذهنه أنها قد تكون مبعثاً للخطر. وراح يضحك من تلك المرأة الأنيقة الجميلة التي أرادت أن ترافقه كحارس إلى هدفه. ولحسن الحظ أنها اقتنعت بعدم جدوى مغامرتها...

أمّا الحقيقة فهي أن نينون لم تفهم كلمة مما قاله لها!

لذلك فقد أخذت تهيّء نفسها للرحيل ولملاقاة حبيبها. فهي لا تريد أن تفقده، والمغامرة تدغدغ شعورها. لكن الذهاب في ثياب امرأة سيكون خطراً، لذا عمدت إلى انتعال جزمتين في قدميها وارتداء معطف ضخم على منكبيها، وتنكّرت هكذا بلباس فارس لطيف من رأسها حتى أخمص قدميها، دون أن تنسى السيف إلى جانبها والغدارتين في زنّارها. ولم تنتظر لتعحجز لها محلا في عربة للمسافرين بل ركبت أول عربة بريد، بين البضائع والصناديق، متعرّضة هكذا لأكبر خطر ممكن، لإشباع حساسيّتها وحبها للمجهول وكل أمر لم يكن متوقّعاً.

ولم تكن قد غادرت باريس من قبل، ولذا فكل شيء جديد بالنسبة لها. ولكن فكرة مفاجئة خطرت ببالها وأخذت تقضّ مضجعها: ماذا يكون من أمرها لو أن حبيبها لم يغادر المدينة بعد؟ وراحت العربة تهدهدها والمناظر الجديدة تشغلها عن نفسها وتدفعها للأحلام وللأيام والليالي السعيدة التي قضتها بين ذراعيه، وقالت في نفسها: آه! ما أجمل مفاجأتي القادمة له!

وحين وصولها إلى النزل الذي يقطنه حبيبها راح قلبها يخفق بشدّة وعنف أمام الباب وعندما تجاوزت العتبة أبصرت به في إحدى زوايا الغرفة يسلّم الخادمة رسالة وسمعته يقول لها:

ـ قولي لها ألّا تنسى، وأن تنتظرني في هذا المساء!

فجمدت نينون في محلها بلا حراك مأخوذة بما ترى وتسمع: إنه يعطي موعداً.. أيمكن أن يرتبط بعلاقة جديدة ويجد عشيقة في بضعة أيام لا غير وينساها هي... هي التي قامت بهذه المغامرة بل بهذه الحماقة من أجله؟!

وعندما استدار للخروج، لمحها بهذه الوقفة الذاهلة، فقال:

ـ أنت هنا؟!

وخانه صوته من الدهشة لا من الفرح. وعبّرت ملامح وجهه القاسي عن الغضب. واقترب منها وأخذ يتأمل الثياب الرجالية التي تلبسها وقال:

ـ ماذا يعني هذا التنكّر؟ تقدمي إلى هنا...

وسحبها بقساوة إلى غرفته حيث انفجر يقول:

ـ لماذا أتيت؟ في الحقيقة أنت مجنونة!

لم تدرِ ما تقول، ذلك أنها إذا أحبّت فقدت إحساسها بوجودها وأضاعت بديهتها وتفكيرها. وبعد هنيهة قالت بعذوبة:

ـ أنا لست مجنونة!

ـ إذن أنت تحبينني! ولهذا قطعت كا هذه المسافة الخطرة؟ لكي تلاقيني.. لا شكّ في أنك عشيقة شريفة تفيض بالمواهب الحميدة والصفات الطيّبة. لكن يجب عليك أن تفهميني: أنا أخاف جداً من امرأة تلتصق بي. أنا رجل وجندي أيضاً، وهذان سببان يحتّمان عليّ أن أكون حرّاً في تصرّفاتي وفي وقتي وفي حياتي... فقالت هي بلطف:

ـ وحرّاً في غراميّاتك! لكنني أحبك يا بيار.

ـ وحرّاً بحبي أيضاً، كما قلت أنت الآن.

ـ وعندك الآن معشوقة هنا، أليس كذلك؟ لقد عرفت الحقيقة.

ـ إذا كنت قد عرفت، فسيسهّل هذا كل شيء. لكنك لا تجهلين أنني عاشق متستّر، وهذا نادراً ما يحدث.

ولم تبكِ نينون، بل تظاهرت بالهدوء. لكنها كانت تتألم بقلبها وبكبريائها كما لم تتألم أبداً. وقالت: إذن، فقد انتهى كل شيء بيننا.

فانحنى بيار وقال: أنا أعتذر على أسلوبي في الحديث، وممّا لا شكّ فيه أن اللياقة تنقصني، ولكن تأكّدي بأنها غلطتك.

ـ أنت على حقّ، ما أنا إلا حمقاء. سأحاول ألّا أكون كذلك.

وتركت الغرفة بدون أن تنظر وراءها.

وجدت نينون نفسها للمرة الثانية، بعد هذا الفشل الفجّ واللا متوقع، تأخذ طريق الدير في يأسها وترتاح من العالم وتجد نفسها أخيراً طليقة من كل أفكارها وهمومها.

في مدينة ليون هذه، المعتمة والغريبة، والتي تراءت لها محزنة لدرجة تبعث في النفس أشدّ أنواع الألم والمرارة، شعرت بأنها وحيدة وضائعة. فلقد كان إعجاب أصدقائها بها كل قوّتها، وهم الآن بعيدون عنها! لقد كان أنبل السادة يركعون على قدميها. أمّا الآن، وفي هذه المدينة، فقد شعرت بأنها لا شيء أبداً. شعرت بأنها في وحدة بدت لها كأقسى التعاسات وأقسى أنواع العذاب، لا بل هي اللعنة.

وكان الدير ملجأً مطمئناً لها وهي في وضعها هذا. وفي صدمتها تلك راحت تتساءل عن جدوى الطريق التي سلكتها. وبالرغم من شعورها بأن التراجع مستحيل، فقد وجدت أن في الدير ما يخفّف من هذه الرغبة الملحّة في المتعة واللذّة.

لقد كانت أقلّ الناس إيماناً وتقوى، لكن بعض ما في الأشياء المقدّسة من جمال كان لا يزال راسياً في أعماق نفسها، كما ترسو صور الطفولة المملوءة بالشاعريّة. لقد أرادت حتى الآن أن تحصد في طريقها كل الأفراح المستطاعة دون أن تبحث عن النظرية الفلسفية لتبرير مسلكها والشباب هو دائماً في طريق الأبيكورية لأنه يكون متعطّشاً للذات...

في باريس كانت قد تعرّفت بكثير من الأشخاص غير المؤمنين، ومن بينهم مفكّرون وظرفاء كان همّهم الوحيد بلورة طريقها. ولذا أصبحت صديقة لنيكول دي فوكيلين، صديق لويس الثالث عشر، الذي طرد من البلاط لأجل أفكاره المتحرّرة.

وهذا السيد لا يزال يعيش في محلّة سان جرمان على حدود العاصمة في نفس شارع «مارا» ولا يزال يتنكّر ممثّلاً دور راعٍ، وينظم حفلات تنكّرية بالأزياء القديمة ليكون محاطاً بالنساء: هدف حياته الوحيد. لقد كان يحلم ببعث بعض العادات الوثنية من أجل الحياة والموت وسط لذّة متجدّدة دائماً.

كانت نينون تزوره دائماً لتعزف على العود مصاحبة الحسناء جان فليكس معشوقة « ايفيتو» في عزفها على القيثارة. وهذا الجو الغريب كان يعجبها، فالمنزل لم يكن مزيّناً بغير اللوحات الفنية، والحدائق مبنيّة بتناسق جميل! كل شيء هناك كان يبعث البهجة في النفس: الاجتماعات والألعاب والحفلات الموسيقيّة، والمناقشات التي كانت تدور دائماً حول التشاؤم: بحو التفكير عند زوّار دي فوكيلين الذي كان يحمل نينون على الإيمان به بالرغم منها. وهناك تعرّفت أيضاً بألكسندر دلبان الذي دخل حياتها لا بل سريرها... وكان هذا شهوانياً كالآخرين الذين دخلوا حياتها، بالرغم من أنه من زوّار أكاديميّة: «مسيو دي مونت مور» الدائمين، حيث كان يلتقي بأناس مثقّفين وعلماء يجتمعون ليحقّقوا ويناقشوا في المعلومات الجديدة والآراء الفلسفية. أما هناك، لدى دي فوليكين، فلم يكونوا يجتمعوا ليبنوا فكرة جديدة بل ليحطّموا الأفكار الموجودة وليتخلّصوا من جميع العلائق التي تمنعهم من تمضية الحياة التي يريدونها، ساخرين من الافتراضات التي تحيط بمستقبلهم الغامض!

كان ألكسندر دلبان غنيّاً لدرجة تجعله لا يهتم بأمور حياته الصاخبة تلك، وشهوانياً لدرجة لا تمنعه من ممارسة جميع أنواع الملذّات:

كاشرب، والخمر والقمار، وزيارة الأزقّة الأنيقة والمخادع المشبوهة، وكريماً لدرجة دفعته لتحطيم حياته على متطلّبات الحب والمرأة.

وكان مكبّلاً دائماً بالنساء لديه منهنّ عدد يساوي عدد أيام السنة. وكان لا يستطيع أن يجزم بشيء، فكلماته عند الأزمات الصعبة تتلخّص بما يلي: سنرى... سأفكّر في الأمر... ثم يترك الحل معلّقاً.

وانتهى بأن افلس وتدهور وركبته الديون ووصل إلى سجن الباستيل. ولولا رحمة بعض أصدقائه الذين دفعوا عنه لما رأى الحرية هذا النموذج الغريب استاع أن يؤثّر على نينون، لثقافته. وكان خلال علاقة نينون به يستخدم بلاغته للسخرية بجميع المتناقضات المنطقيّة والأخلاقية حتى يدفع عشيقته للتخلّص من جميع الأحكام المسبّقة التي تعترض طريق غريزتها المتفتّحة.

كان مثل دي فوكيلين ومارا وميوسنس والآخرين، يطبّق علمياً آراءه النظرية في السعادة وطرد الهموم والعيش الناعم. وكان استعداد نينون لتقبّل مثل هذه الأفكار مرتبطاً بالحالة النفسيّة التي أنشأها عليها والدها.

أما معلمها الحقيقي، فكان سان أفريمون الذي تعرّفت به، كما سبق وقلنا، عند ماريون ديلورم، والذي اعتنق جميع هذه الأفكار دون مبالغة وإفراط في التجاديف الصبيانية. وموقفه المعتدل هذا جعله أكثر حكمة وأكثر تأيراً.

وعندما وقع الخلاف بين نينون وبين ماريون ديلورم الشهيرة، لم يتردّد في اتباع الأولى بعد أن تحسّس لديها ذكاءً وعقلاً باستطاعتهما تكييف الأشياء وشرحها وفلسفتها عدا عن بعض الخصائص الأخرى التي كانت

تفوق بها غريمتها المندفعة في طريق الشهوة اندفاعاً أعمى. فكان حتى آخر أيامه، الصديق الأمين والأفضل لنينون.

كان صديقاً وليس بعشيق، أو عشيقاً على مستوى خفيف! ذلك لأنه كغيره كان يودّ امتلاكها ويشتهيها، وبما أنها لا تستطيع التفريط بهذا الصديق الرائع، فقد منحته نفسها أكثر من ليلة. والظاهر أن هذه العلاقة الجسديّة بينهما كانت تزعجهما على السواء. ولكن فكرة انقطاعها عنه أو رفضها له أوبالأحرى حرمانه منها، كان من الممكن أن تولّد في نفسه وبدون شك مرارة وحسرة بإمكانها أن تودي بصداقتهما. وقالت له نينون ذات مرّة بمرح:

ـ أنا أرى جيّداً بأنني سأتركك، فأنا لا أستطيع أن اقول لك دائماً: لا. وسأخسرك بذلك ولا شك. وانا لا أريد أن أفقدك مقابل العالم أجمع، لأنك أعزّ وأثمن صديق لي.

ولذلك، أليس من الأفضل أن نتخلّص معاً وسويّة من هذه الخطورة، متراجعين لدى أقلّ ما يمكنه أن يحمل ولو ضرراً قليلاً لنا كلينا؟

العلاقة بينهما لم تكن غامضة، فالحب كان ينقصها، والوعود والواجبات كذلك. كان هنالك مجرّد رغبة فقط عليها إطفاؤها، ولقد أطفأتها عندما منحته جسدها لأكثر من مرة.

والحقيقة بينهما، كما كتب لها فيما بعد، جعلت دوره إلى قربها، «لامجرّد صديق، ولا عاشقاً حقيقياً».

والآن باستطاعته أن يعجبها بدون ضجر، بالرغم من منخاره الأفطس الكبير. أما عيناه وشفتاه فقد كانتا ذات جمال فائق. كان موزوناً وماهراً،

حتى أنه لم يعرض أبداً كفره أو زندقته على الناس متباهياً بهما على عادة الآخرين. فهو لا يريد أن يمثّل دور الكافر المارق ليحترق بكفره. صحيح أنه كان يريد أن يخدم العقل، ولكن ليس على انقاض حياته. ولذا منح نينون ذوق القياس والتدقيق في كل شيء. وقد قال لها ذات مرّة: «هناك حب كثير باستطاعته أن يكفينا جميعاً وبدون أن يلقي الاضطراب في معيشتنا. فالقلب لأجل الحب فقط لا من أجل الألم والعذاب.»

وكانت هي مستعدة لتصبح التلميذة المخلصة لهذا الرجل الذي لا يؤذي أبداً، والذي يعرف طريق الحياة الحرة بدون تعب وبدون تكلّف. وبينما كان أهل عصره يتحلقون حول الموائد الضخمة في الحفلات وحول البارات المعدّة للشرب في الكباريهات، كان هو يكتفي بمطبخه البسيط النظيف مبتعداً عن الخمر قدر ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً. وهذا ما جعل نينون بدورها تبتعد عن الخمر والمشروب مكتفية بأقداح الماء الصافي، وأحياناً قليلة ببعض الجرعات المرطّبة من الشمبانيا. وكما أخذت أيضاً من سان أفريمون كثيراً من صفاته وأذواقه الخاصة وميوله، كان شيء غريب في تركيبه الحياتي يدهشها ويحجلها تابعة له بدون إرادة أو تعمّق. وكا ن يخيّل إليها غالباً أن هذا الرجل يحمل مفاتيح الفرح الداخلي والسعادة الهادئة البسيطة التي تجعله يتقبّل الموت بانشراح وهدوء. وبواسطته فهمت حقيقة الصداقة الكاملة الحكيمة المشتركة التي كانت بأشدّ الحاجة إليها في حياتها الضائعة وغير المستقرّة، وفي طريق اللذة والمتعة المتبدّلة دائماً. فالصداقة كانت تمنح نينون شيئاً من الهدوء ومن الاستقرار الفكري.

وهاهي الآن في ليون بعيدة عن سان أفريمون المشغول عنها في

باريس بالحرب الأهلية حيث عيّنه مازاران قائداً لفيلق عسكري بمرتب شهري ضخم. وهو لذلك يستطيع أن يساعدها. وبينما هي في شكوكها وهواجسها بنفسها وبغيرها، وقعت على أغرب أمراء الكنيسة في ذلك الوقت، ألا وهو كاردينال ليون الذي لم يكن إلا ألفونس دي بلسي دي ريشيليو، شقيق الكاردينال ريشيليو الشهير الوزير السابق المتوفّي.

وكان هذا عالة على شقيقه الكبير في جميع أدوار حياته، لأنه لم يستطع لأن يكون شيئاً معيّناص. وبمروره من «أيكس» إلى ليون ، فضح في طريقه المخلصين من أنصار حزب أخيه لحماقته. وكان شهوانياً لدرجة لم تمنعه من ملاحقة النساء بالرغم من تقدّمه في السن، كغيره من آل ريشيليو الذين عرفوا بهذه الصفة... لذلك لم يخجل أبداً من الركوع على أقدام السيدات.

وعندما أخبرني ليون بأن امرأة لجات مؤخّراً إلى الدير وهي لا تعترف مطلقاً، تحرّق شوقاً إليها على اعتبار أنها بحاجة ولا شكّ إلى دليل يقودها نحو الحياة الصاحة... وبالطبع عرف بعد أن جمع معلومات قيّمة حولها، غنها إحدى سيدات باريس العصريّات وانها صاحبة صالون من الصالونات المطلقة الحريّة والإباحية، وأنها أجمل الصيّادات الحسان.

وإذ قبلت نينون بهذا الدليل متوقّعة ان ترى شيخاً قذيساً، لم يدر في خلدها ابداً انها ستلتقي بهذا الأفّاك الذي لا يملك من الدين إلا الثوب.

تحدّثا في البدء حول محيط الدين وجوّه. فسألها الكاردينال قائلاً:

ـ إذن يا سيدتي، ما هي ميولك؟

ـ أنا تعبة من الحياة يا سيادة الراعي! تعبة من العالم كله. هل عليّ أن أخبرك بأخطاء حياتها التي ارتكبتها حتى الآن؟

ـ عرفتها، ولكن أفكّر بأن الجمال له حقوق.

ـ لقد أفرطت كثيرا باستخدام هذه الحقوق، حتى إنني تعبة من الحب...

ـ وهل خفق قلبك كثيراً؟

ـ وارتجفت عينا الكاردينال. أما هي فقد قالت:

ـ الحقيقة... لقد خفق كثيراً. و...

ـ إيه! أليس الهرب هو الذي خلق الحب؟ وأن تحبّي، فذلك عرفان جميل. ألست على صواب؟

ـ أنت رحيم جداً يا سيادة الراعي... ولا شكّ بأن الرب قد أتخم من هذا العرفان بالجميل الذي ما زلت أثقل به كاهله منذ سنوات وسنوات... وأنا أفكّر جدّياً بالبقاء هنا في الدير... وسيأتي اليوم الذي أقدّم فيه نذوري...

فأطلق الكاردينال عدّة صيحات استنكار واخذ يد الحسناء بيديه وغمرها بالقبل، وقال لها: أنت، بهذا الوجه، وهذا الجسد الرائع، تدفنين نفسك في دير؟ هل فكرت في ذلك جيّداً؟سيكون عملك هذا جريمة!

فأخذت نينون بهذا الموقف الذي لم تتوقّعه أبداً ولم تدرِ بما تجيب. لقد كانت تتوقّع مناقشة هادئة رصينة ونصائح وإرشادات، فإذا بها تصطدم بهذا المتحذلق المتصابي يثبّت على صدرها نظرات لم تكن ملائكيّة. واوضح الكاردينال الشيخ كلامه قال:

ـ يجب أن تنزعي أفكاراً كهذه من رأسك، وسأساعدك في ذلك. لا

تظنّي بأننا متأخّرون هنا في المقاطعات وبأننا نجهل المتع والمسرّات. باستطاعتي، أنا أيضاً، أن أهيّء أعياداً وحفلات مرحة! هل تعرفين ما هو اختصاصي؟ إنه في إعداد حفلات راقصة. عندنا فنّانات باستطاعتهنّ أن ينتزعن الإعجاب بتمثيل ادوار القرويّات، وأنا لا ازال أحتفظ لنفسي بدور الراعي العاشق... سوف أقدّم بعد زمن قليل حفلة رائعة وفي هذا الدير نفسه، وعند ذاك سترين ما باستطاعتي فعله.

وراح يضحك ويرقّص جفون عينيه ويحرّك فخذيه. واستطاعت نينون بعد ذلك أن تشاهد الحفلات الراقصة وأدواره المضحكة فيها. لقد أرادت أن تتخلّص بالتجائها غلى الدير من ابتذالات الحب والغرام والتملّق، فإذا بها تجد كل ذلك، بطريقة مضحكة كاريكاتوريّة، تحت ثوب كاردينال. يا لسخرية الحظ! وذات يوم قالت له نينون: في الحقيقة إنه شيء مدهش أن يتبعني الحب حتى إلى هذا الملجأ الذي توسّمت فيه الراحة.

ـ لكن يا جميلتي، عندما يراك أحد الناس بماذا يمكنه أن يفكّر وإن لم يفكّر بالحب؟

ـ كنت أعتقد، يا سيادة الراعي، بأن أمراء الكنيسة نذروا أنفسهم للعفّة والطهارة...

ـ ياه! ياه! إذا نزعنا أثوابنا فلن تجدي تحتها إلا رجالاص مثل بقيّة الرجال! وأنا أؤكّد لك أن حبنا يعادل حب ألمع الفرسان! وفي لأثناء ذلك وضع يده على كتف نينون وقرّب منها وجهه ذا العينين البرّاقة بالرغبة، محاولاً مداعبتها... فارتدت إلى الوراء مشمئزّة، وقالت:

ـ يا سيادة الراعي، انت بهذا تنتزع مني آخر آثار الاحترام نحو رجال

الكنيسة وكل الأشياء المقدّسة. ولن أعاود الدخول إلى الدير أبداً، بل إني أريد أن أترك الدير الآن...

على كل حال كانت نينون تفضّل أشنع الأخطاء المجونية والشهوانية على هذا المزيج من التقوى والرياء. وعاودها شعور اللذة بالحياة. حياة الراهبات لم تكن مخلوقة لها.

لذلك عادت إلى المدينة، المدينة التي تكاد تفقد طابع الحياة المميّز: فلا زيارات، ولا حفلات، ولا أسواق، بل شعب بائس غارق في الشقاء. وبورجوازيّون يغلقون الأبواب ويختبئون في منازلهم. واستأجرت منزلاً متواضعاً لأنها لم تكن تمتلم يومذاك إلا القليل من المال، والرجوع إلى باريس في تلك الحال يكاد يكون ضرباً من المخاطرة، فالحرب لمّا تزل تدور بين الأهالي، على الرغم من أن باريس لم تخلق للحرب بل للسلم والأفراح المتواصلة. وفي هذه الأثناء ، وفي مدينة ليون، تعرّفت نينون بشخص اسمه مارك أنطوان بيراشون وهو رجلٍ غنيّ جداً لا تقدّر املاكه وأراضيه بثمن. ولقد لقيته بالطريق ذات مرّة فأ خذ بهاتين العينين اللتين اخترقتاه من جهة إلى جهة. كانت نظراتها تلك كالضربة الصاعقة.

وفكر في إضافة هذه المرأة الرائعة إلى لائحة انتصارته الغراميّة. ولم يكن هو بالعجوز ولا بالشاب بل بين بين، لا بالسمين ولا بالضعيف، لا باللبشع ولا بالجميل. وكانت ملابسه أنيقة توحي باللياقة. وقد جعل يتقرّب من هذه الحسناء بكل ما يملك من الوسائل مطمئناً إلى انها لن تكون قاسية معه، ومن يستطيع أن يقاوم أمواله؟

وعندما عرف أنها ليست أكثر من حظية هان عليه التفكير بالانتصار

عليها بسهولة. ولم يكن يعيقة سوى الجرأة. وفي ذات يوم ذهب لزيارتها فرمى نفسه في حضنها فجأةيرجو أن تدفعه هذه الخطوة الجريئة نحو النهاية المتظرة لمغامرته.

لكن عناد نينون وصرامتها حملاه على التراجع في كثير من الدهشة. فقد قالت في غضب: أرجوك أن تتكرّم وتذهب من هنا في الحال. أين تعتقد نفسك؟ هل تصوّرت أنك أمام فتاة من الشارع؟

وكان غضبها شديداً حقاً، لأنها لم تلتقِ في حياتها بعد برجلٍ في مثل هذه الشراسة وهذه الوقاحة.

وفيما كان السيد بيراشون يرتجف خجلاً ويطلب المعذرة، هزّت نينون كتفيها وقالت بصوت عال:

ـ أعذرك، لكنني سأمسك عن استقبالك مرة ثانية.

فتوسّل إليها في مذلّة، وفي نوبة حماسة وكرم مفاجيء صاح قائلاً:

ـ أرجوك أن تقبلي، من أجل مسامحتي فقط، هدية مني هي عبارة عن منزل جميل أمتلكه في بروتو. وهو يليق بك أكثر مما يليق بك منزلك هذا. إنه يساوي على الأقل ثمانيةآلاف ليرة.

فقالت:

ـ ذكر الثمن يحطّ من قيمة الهديّة.

ـ حقاً، هل جرحتك أيضاً؟ كم أنا سخيف إذن!

ـ لن اقبل هذا البيت لأنك ستعتقد بأنني أقبل حماقاتك. وهذا يكون خطأً فادحاً منك. فنحن لن نتفاهم أبداً. أنت تعتقد بأنه باستطاعتك شراء كل شيء، لكن امرأة مثلي لا تشترى أبداً يا سيد دي بيراشون...

فانذهل الرجل المسكين لأنه لم يكن يتوقّع أن تقف منه هذا الموقف. ولم يكن يتوقّع هذه الصرامة وهذا الاحتقار... وفي جميع الأحوال ما هي إلا حظية! هذا شيء يفوق التصوّر. ثمّ تجرّأ وسألها قائلاً:

ـ لكن ما العمل لكسب عطفك؟

ـ أن تعجبني، يا سيدي. الحب بالنسبة لي ليس سوقاً تباع فيه الأجساد وتشرى، بل هبة تمنح!

فارتبك جداً لأنه لم تكن لديه فكرة واضحة عن هذا الحب... وقال:

ـ أنا أهبك منزلي، يا سيدتي...

ـ ... الذي يساوي ثمانية ألاف ليرة، أعرف ذلك.

ـ ارحميني وانسي ذلك، لا تثقلي كاهلي... ما أنا إلا قرويّ مسكين... أنا أؤكّد لك بأنه هبة صادقة لا تحمل وراءها أية مصلحة خاصة لي. أتوسّل إليك أن تقبلي، وكل ما أطلبه أن تسمحي لي بزيارتك وتقديم احتراماتي... لا بشيء أكثر.

فقالت:

ـ حسناً، إذن أقبل، على شرط أن تفي بوعدك.

وهكذا تركّزت في المسكن الأنيق... هدية المعجب المسكين الذي كان يأتي لزيارتها مرّتين في الأسبوع، ثم ثلاثاً ثم في كل الأيام... وكانت هي تستقبله بلطف لكن بملل. وإذ رآها تتلطّف معه، ظنّ بأنها لانمت له. وعل كلّ فالدفع كان مقدّماً وقد بلغت قيمته ثمانية آلاف ليرة.... ألا يستحق مقابل ذلك شيئاً مكن امرأة تركت فضيلتها منذ زمن؟!

وعندما لقي الرفض كالسابق لم يستطع إلا ان يغضب قائلاً:

ـ أنت تعتبرينني أحمقاً أو مهرّجاً مضحكاً. منحتك منزلاً يساوي ثروة ثم مقابل ذلك لا تسمحين لي حتى بتقبيل يدك. إنه وضع غريب، وإنها طريقة لا تحتمل.

ـ هل تتكلّم على سوق الحمقى يا سيد بيراشون؟ لقد قبلت منزلك... وأنا اسخر من ذلك! هل تعلم أن أمراء مشهورين في باريس كان لهم شرف ضمان عيشي؟ وأنت تتصوّر انك ستشتريني بثمانية آلاف ليرة؟ الحقّ أنك لا تستحقّ اكثر من الاحتقار. وها انا اخرج في الحال لأنني لا اتحمّل أن أبقى تحت سقف رجل لا يحترم كلامه ولا يحترم المرأة التي وثقت به.

فشعر بيراشون بأنه قد سُحق، وبأن صوته يخونه. وأمرت نينون خدمها بتهيئة عربتها، وبدون أن تستمع غلى توسّلات بيراشون أخذت طريقها نحو الأوتيل.

لقد مكلّت الإقامة في ليون. فهي لم تلق فيها إلا التعب. والضواحي لم تخلق لأمثالها. لذلك ستعود إلى باريس مهما كلّف الأمر. فهي لم تعد تستطيع ان تتحمّل الوحدة أكثر من ذلك في مثل هذا الجو العابس. لا شكّ أنها تفضّل حرب الشوارع وكل أنواع المخاطر التي ستقبلها في باريس، مقابل التنفس من جديد في الهواءالذي يروق لها، وخصوصاً لملاقاة عشيقها القديم «مارا» والاستماع إلى مناقشات رجال الفكر والأدب.

في باريس: أهواء جديدة

حين وصولها إلى منزلها في باريس بشارع «النجمات الثلاث» شعرت بالنشوة وقالت في نفسها: وأخيراً، ها أنا في بيتي! وتنهّدت كأنها تتخلّص من عبء ثقيل.

كانت باريس لم تزل تغلي، وكانت الفوضى تأكّلها. ولكن ما الذي يهمّها من هذا كله؟ لقد فرح أصدقاؤها بوصولها مأخوذي بهذه الفتنة التي تزداد وتعاظم مع الأيام. وهم بإمكانهم أن يجدوا جمالاً وذكاء بمقدار وذكائها، ولكنهم لن يجدوا من تملك الجمال والذكاء فوق ما تملك هي منهما!

وعاد الصتالون القديم إلى بهائه وأعياده. والحق أن باريس وحدها هي التي تعرف المرح والضحك والحب والأحاديث الشهيّة. وراحت الأسئلة تتجاذبها من كلّ مكان. ماذا استطاعت ان تفعل في أمكنة بعيدة مثل ليون؟ هل صحيح ما يقال عن هربها من باريس متخفّية بشكل فارس؟ من هو ذاك السعيد الذي كان ينتظرها هناك؟ وهذا الاهتمام وهذه اللهفة نحو الباريسيّة الحسناء العائدة جعلاها تشمخ بأنفها! والكردينال، هل جعلت الكردينال يركع على قدميها؟ كان لا بدّ لها من أن تذكر بعض الأحداث للمحيطين

بها، فراحت تقص عليهم علاقتها مع السيد بيراشون، مما حمل القوم على الضحك المتواصل والمرح والنكات والأحاديث الصاخبة الماجنة حول هذا الجبلي الذي يريد أن يشتري بدراهمه ما ظلّ انبل السادة هنا بانتظاره مدّة سنتين!

وعاد أولئك الفتية يجلسون في أماكنهم المعتادة. كما أخذ سان أفريمون، هذا الساخر الذكي، يتردّد على الصالون لتمضية الساعات اللذيذة التي تسمح له بها السلطات، بين روّاد نينون الطيّبين. وفتح المموّلون لها خزائنهم من جديد بطيبة خاطر، فراحت تقابل كرمهم ولياقتهم بما عند أولئك البورجوازيين في ليون، فتبتسم.

وهنا تلقّت نبأ وفاة غاسبار دي كوليني. فكان وقع النبأ مؤلماً. ويتلخّص بالخبر عن مقتله في أحد الشوارع عندما كان يحارب ضدّ مازاران، بضربة خنجر تلقّاها من أحد البورجوازيين المختبئين وراء أبواب منازلهم. وبعد الإصابة المميتة نقل الجريح على حمّالة إلى فنسين حيث التقى في طريقه بالقائد كونديه الذي أبى إلا مرافقته إلى هناك حيث وضع في غرفة منخفضة، ومات بين يدي الأمير الذي كان يشدّ شعره من الألم والحزن على فقد أشجع وأخلص صديق له.

وراحت نينون تحلم برهة بهذا الرجل الذي اشتهته بل أحبته بقوة وعنف، والذي رفضها لا بل احتقرها... تذكّرت وجهه الناضح بالحيويّة والتألّق، ورنّات ضحكته المجلجلة بعد كل قصة او نادرة كان يرويها. وغطّت الدموع وجهها. وفكّرت في نفسها تقول: ما أقصر الحياة! إنها لقصرها لا تسمح حتى باحتفاظ ذكرى فرحة لمدّة طويلة!

وعندما وصلت إلى هذه النقطة من تفكيرها كانت فكرتها الرئيسية اتّباع أهوائها من جديد، وفرض إرادتها المطلقة، وانسياقها مع تيار المرح والمتعة، بدون أن تثقل كاهلها هموم المعنويات أو المادّيات. وهي الآن أقل إنسانية مما تريد أن تكون. لا عواطف حارة ولا دموع: لقد تعلّمت من الدرس الذي تلقّته من بيار دي فيلار أن تكون قاسية. أما الحادثة الأولى التي جرت لها بعد رجوعها إلى باريس فإليك خبرها:

كان ألكسندر فارس فندوم، الابن الشرعي لهنري الرابع وغبريالا داستري، يفكر بأن هذه المرأة سترتمي بين ذراعيه حالما يفتحهما لها. ولم لا ترتمي بين ذراعيه لدى المحاولة الأولى وهو ذو مركز اجتماعي ضخم وثروة هائلة، وعدا ذاك فهو من أبرع راقصي الباليه في المملكة. وعلى هذا أتى غلى نينون، المرأة الجميلة التي سحرته، آملاً أن يفوز بها بكل سهولة.

لكنها في الحقيقة لم تمنحه إلا يدها لتقبيلها. ولم تهتم به إلا قدر اهتمامها بالآخرين، ووجب عليه أن يجلس كأي زائر جديد وراء أصدقاء الصالون الدائمين. فشعر بالإهانة إذ اكتشف أن الاسم والثروة ليس لهما محلّ مميّز هنا. لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، فلا مبالاة نينون جرحته بقسوة بينما أنبل السيدات تنتظر كلمة منه... ولم يرضَ أبداً أن يكون محتقراً من امرأة لها أكثر من عشرين عشقاً.

وجلس متنهّداً. وإذ قدّم لها بعض الهدايا استُقبلت بلياقة وبرودة، قال في نفسه: «ضحكت علي ذقني».

هذا لا يحتمل! ابن ملك... يعامل بهذا الشكل؟ لا! وهمّ بأن ينسحب، لكنه أراد قبل ذلك أن يحطّم كبريائها ولو بمجرّد الكلام، فترك لها رسالة

على إحدى الطاولات. وعندما فتحتها لتقرأها، مطمئنة إلى انها تحتوي بوحاً بحبّ جديد، إذا بها تقرأ هذه العبارات التي لم تتوقّعها أبداً وهي عبارة عن أبيات من الشعر تقول:

لا تستحقّين غرامي. ولا تستحقّين تنهّداتي

وها أنا ذا أكتب، بدون ندم، لمغرياتك التافهة:

إن حبي منحتك سحراً

لا تملكينه أيتها الجاحدة؟

يا لها من طريقة غريبة لم تتعوّدها أبداً. كيف يمكنها أن تعاقب هذا الغريب الوقح؟ أتمنعه من دخول بيتها؟ لكن ذلك شيء تافه وسهل! هل تظهر وقاحته للناس؟ لكنها غهانة لها بالذات! وبعد تفكير طويل قرّرت أن ترد عليه بنفس اللهجة والأسلوب، فكتبت رسالة ضمّنتها أربعة ابيات من الشعر أنجزتها على النسق ذاته، قالت:

بدون مبالاة بغرامك، وبدون مبالاة بتنهّداتك،

أراك تكتب إلى مغرياتي التافهة،

لكن إذا كان الحب يمنح سحراً

فلماذا لم تقترض منه شيئاً؟

كان دي فاندوم مزهوّاً بنفسه، لكنه كان يملك بعض الذكاء. وأدرك أن جواب نينون كان دقيقاً وقارصاً، ومع ذلك فإنه لم يمنعه من الابتسام في سرّه مفكّراً يقول: «يا لها من فتاة مدهشة! لكنها للأسف لم تستجب إلى رغباتي! غير أن النساء متقلّبات دائماً. فالتي تقول اليوم «لا» قد تقول «نعم» في الغد...»

والانتظار لهذه الـ«نعم» التي فكّر بها، جعله زبوناً دائماص لصالون نينون، وصديقاً لها. ولم يكن السبب في صداقته لها شهرتها الواسعة بالنسبة للجميع، بل أيضاً لأن صداقتها مدعاة للتسلية والترفيه المستمرَّين. فقبل نينون، لم يكن يشعر في علاقته بالنساء بأي غموض أو لذّة خفيّة معيّنة تدفعه للاستمرار في المتعة، بينما كان، وهو في جوارها، يشعر بالارتياح والسعادة. وذات يوم قالت له:

ـ كل الأحاسيس الواعية تعمل لكي تجعل الإنسان سعيداً. ومن أجل هذا الهدف عليك ان تحكم على كل الأشياء والأحداث التي تمرّ بك.

لم يكن هنالك من أحداث يمكنها أن تضايق نينون، فهي تستمر في حياتها دون أن تفسح في المجال للهموم مهما أحاطت بها، طالما أن هنالك رغبة تمتلكها.

كانت تسمع الجميع يتحدّثون، في كل مناسبة، عن امرأة شابّة لطيفة وحكيمة مفكّرة، هي المركيزة دي سافيني. فالرجال جميعهم كانوا يعبدونها، ولكنهم كانوا يتملّقونها عبثاً. فليس بينهم من بإمكانه ان يفتخر يوماً ما بأنه نال منحة بسيطة منها، حتى ولا ظل منحة. ومع ذلك فقد كان لها صالونها العامر بالمعجبين... وقال أحدهم لنينون:

ـ هي تحب زوجها، وهي مخلصة له، فريدة في صفاتها، شريفة وفاضلة بدون تكلّف!

وغضبت نينون واشمأزّت من كثرة الأحاديث التي تدور حول المرأة في حماسة مبالغ فيها. صحيح أنها لم تر الزوج، المركيز دي سافيني، ولكنها تعرف الكثير عنه وعن سمعته: فهو أسوأ مثال ونموذج للزوج

الرديء: زير نساء، ولاعب قمار، ومستعد في كل دقيقة للمشاغبة. وهو فوق كل ذلك جميل وجذّاب. وقد قيل لها إنه يتلف زوجته في سبيل عشيقاته.

وبالفعل أخذ أصدقاء المركيزة الحسناء، الغاضبون من تصرّفات الزوج وحماقاته يحرّضونها، لا بل يجبرونها، على فصل أملاكها عن أملاكه وموارده. وهكذا استطاعت أن تتلافى الخراب. لكنها تركت له ما يقارب الخمسين ألف ليرة. وقد قال لها السيد كولنج ذات مرة:

ـ كم أنت مخطئة في تبذير هذه المبالغ على رأس أحمق كهذا!

فأجابت مدام دي سافيني تقول: هذا بسيط إذا كان عليّ أن لا أدفع غير ذلك، لكن انتظر وسوف ترى.

هذه المرأة العذبة والرائعة قد غُبنت ولا شكّ بهذا الزوج المستهتر الذي لم يترك سيدة تعرّف بها دون أن يرتبط بعلاقة غراميّة معها، بينما لم تكن هي لتثأر منه غلا بالكلام.

لكن العلاقة الأخيرة التي ارتبط بها مع نينون، والتي أصبحت مدار أحاديث المدينة والبلاط تأثّرت بها الزوجة جيّداً.

وعندما التقت نينون بالمركيز دي سافيني، رأت فيه النموذج للجمال الذي يجتذبها. فلم تتمنّع عليه في البدء كعادتها مع الجميع بل جعلت من نفسها عشيقة له في الحال.

وكانت الليلة الأولى رائعة، والضيف على مزاجها تماماً. وعند الصباح سألها وهو راضٍ عنها وعن نفسه، قال: كم من الوقت ستحبّينني؟فأجابته نينون بخفّة:

ـ نحن دخلنا في سعادة غامرة لن تدوم أقل من ثلاثة أشهر. وهذه المدة لعَمري هي الأبديّة بالنسبة لي!

فتركها سافيني منتشياً، وطاف من ساعته يبشر بالفوز الرائع. يا لها من بداية حسنة! ولم يفكّر لحظة بعذاب زوجته. وبعد الظهر من ذلك النهار ذهب لزيارة ابن عم المركيزة دي بوسي رابوتين، وهو شاب ذكي لكنه مغمور. وهو يعتبر الرجال الذين من طراز المركيز كحيوانات، كما يعتبر النساء اللواتي يعجبهنّ هذا النوع من الرجال نساء سخيفات وذوات ذوق حقير. وهو يحسد سافيني بالقدر الذي يحب فيه ابنة عمه، بدون أمل.

وإذ فاجأه سافيني بقوله: « لقد أمضيت الليلة، يا عزيزي، أجمل ليلة في الحياة!» عبس وتجهّم. أما سافيني فقد تابع قائلاً: نينون ذات فتنة لا تقاوم، وسأدعوك إليها عندما يشغر المحلّ يا عزيزي، وعليك أن تعجبها أولاً ولا أظن أن ذلك أمر سهل! وانفجر في ضحكة شامتة! فسأله دي بوسي قائلاً:

ـ هذا غريب حقاً! كيف يمكنك أن تفتخر بهذه المرأة وابنة عمي هي أفضل منها بألف مرة. وهي لو لم تكن امرأتك لكنت تقوم بالمستحيل لتجعلها عشيقتك. فقال المركيز بغير اهتمام:

ـ هذا ممكن! وعلى كل فهي زوجتي، ولن تكون الاثنين مرة واحدة.

وعلى هذا راح يعدّ ملذّات تلك الليلة المجنونة، ويروي الأساطير حول سحر نينون والسعادة التي غمرته بها. ففوز كهذا لا يستكمل نجاحه إلا بعد إعادة وصفه على الأصدقاء والاستماع إلى صريف أسنانهم.

وبعد تفكير طويل تبيّن لدي بوسي أن هذه الحادثة يمكنها أن تدفع

بأعماله خطوة إلى الأمام. فكل امرأة خانها زوجها بمثل هذا الاحتقار لا بدّ أن تفكّر بالانتقام. أولاً يصحّ أن يكون دي بوسي هناك، ليتلقّى بين ذراعيه المركيزة الحسناء معزيّاً ومهدهداً ومؤاسياً، وعارضاً مساعدته القيّمة لتخفيف آلامها وتعبها؟! سيلقّن هذا الـ«السافيني» درساً يستحقّه أكثر من أيّ كان من أمثاله!

وذهب إلى زيارة ابنة عمّه تحت ستار تأدية خدمة لها. وقال في نفسه إنها بلا شكّ عالمة بالأمر، لأن الجميع قد عرفوا، وعلى هذا فسيقصّ عليها المشهد بمباذله كما رواه الزوج بافتخار، وبالصدى الواسع والشهرة الضخمة اللذين نالهما...

وكانت الضربة على الوتر الحسّاس، ولم تستطع المركيزة بعدها أن تخفي تأثّرها الواسع وألمها العظيم. لكنها متكبّرة ومتعوّدة على الأسى والحزن، لذلك قالت لابن عمّها: لا شكّ أنه كان رائعاً حين راح يقصّ الخبر على مسامعك بالذات! فقال دي بوسي:

ـ أرجوك، لا تذهبي إلى أنك لم تعرفي الخبر إلا مني أنا.

ـ أأنت مجنون لتعلن هذا الرأي امامي يابن عمي، أم أنك ظننتني مجنونة؟

ـ نعم، أنت ولا شكّ مجنونة يا ابنة عمي في حبك بعد هذا لزوج خائن لا يستأهل الحب ولا الشفقة. وكل عمله أن يفتح أبواب المخادع طيلة وقته، ولا يحمل لك أي تقدير. بل الأصح أنه يسخر من موقفك!

فقالت في حزن: نعم! معك حق!

فتحمّس لذلك وألحّ قائلاً: يا ابنة عمي، عليك أن تنتقمي! يجب ألّا تتحمّلي دائماً الإهانة وأنت خافضة رأسك. أنت جميلة تستحقّين العبادة وأنا أعبدك... لا ترفضيني: أنت بهذا تغمريني بعطفك وتهدّئين غضبك....

وارتمى على ركبتيه وأخذ يديها بين يديه يريد تقبيلهما وملاطفتهما لكنها ابتعدت بسرعة وقالت في جفاف: لا بأس يا سيدي الكونت! أنا لست غاضبة للدرجة التي تتصوّرها!

وحتى تحت وطأة آلامها، دافعت عن نفسها بكبرياء اليائسة. فهم دي بوسي أن إلحاحه في مثل هذه الساعة لن يجديه نفعاً، فنهض متنهّداً وهو يأمل أن يكون باستطاعة الوقت والتعب والشجون، التخفيف من هذه الفضيلة الصعبة وتغيير طريقها. وقال في نفسه: « سيحملها زوجها على أكثر من هذا، وستنتهي بأن تطلب مساعدتي بعد أن عرفت حبّي لها.»

وبالفعل فقد تابع المركيز حياته المجنونة المضعضعة، ولم يعد يتكلّم إلا على عشيقته نينون. وإذ التقى بدي بوسي في الساحة ذات مرة أوقف عربته قائلاً له:

ـ ألم تنقل لابنة عمك حديثنا المرة الماضية حول نينون؟ لقد وصلتني بعض الأخبار، وأنا أسائل نفسي هل كتمت الخبر أم لا؟

ـ بالطبع لقد كتمت ذلك أكثر ممّا كتمته أنت. كل المدينة تدري بقصتك، وربما بلغها ذلك عن غير طريقي، فهي تفهم بسرعة وتتنبّأ بما لم يُقل.

ـ على كل حال لا يهمّني إن عرفت أو لم تعرف. فأنا أسعد الرجال،

وسأحاول أن أكونه دائماً طيلة حياتي، في الوقت الحاضر أنا كليّاً لنينون... وسأمضي الليلة التالية في سان كلود، فقد دعانا السيد دي فاسي إلى حفلة سيقيمها هناك معتقداً بذلك أنه يمالق نينون. ولكننا سنسخر منه سويّة!

وبالرغم من أن دي بوسي لم يكن يصغي إليه، فقد أراد أن يقدّم له هذه النصيحة:

ـ ألا تعتقد أن وضعك هكذا كزوج، هو وضع مبالغ فيه؟ فالنساء الطاهرات سيتركن أنفسهن للشقاء وللاحتقار أمام زوج مثلك. وبعد أن يتعبن من ذلك سيهجرن الصراع ويقبلن بالقيام ببعض الحماقات التي سيجدنها عذبة... وابنة عمي لا شك بأن لديها أكثر من محب. وبالرغم من أن فضيلتها تمنعها من الإقدام على فعل شنيع... فإن ساعة الانتقام لا بدّ أن تأتي في النهاية.

أراد بوسي بهذا أن يضعضع خصمه لا أن يثنيه عن طريقه وهو الذي يفقد كل قياس وكل منطق عندما يندفع في حب. وقال الزوج:

ـ المركيزة امرأة ساحرة، أنا أقدرها كثيراً، لكنني أخبرك بأني لا أحبها.

فقال دي بوسي:

ـ المأساة هي في أنها تحبّك.

ـ وماذا أستطيع أن أفعل؟ فقد أصبح مخلصاً لها عندما أشيخ. واحتفظ دي بوسي في هذه المناقشة في ذاكرته في سبيل أن ينقلها إلى المركيزة. وكان، من أجل إجبارها على التفكير به، يواصل مراسلتها دائماً شارحاً لها كل مرة أهواءه وحبه، منتظراً اللحظة السانحة. والمركيز كان يدفعه دائماً إلى قربهاكلما بالغ في جنونه في حبّ الأخريات. فهو دائماً خارج البيت

بعيداً عن هذه الزوجة الرائعة التي تمنح العذوبة و التسلية لكثير من رجال الفنّ والأدب. ولسوء حظّ دي بوسي، أراد القدر أن يكون الزوج موجوداً حين وصل إحدى رسائله إلى المركيزة، وهي مليئة بالبوح المكشوف. وعندما علم سافيني أن هذا الصديق الأمين المخلص كان يلعب لعبة قذرة معه، بات الليلة بطولها عند زوجته معزّياً ومنتقماً في سرير واحد.

وفي المرة التالية التي التقى فيها به، قال له:

ـ كنت أعتبرك كصديق، لكنك استغللت صداقتي استغلالاً حقيراً، أنا مطمئنٌ إلى فضيلة زوجتي. لكنني أمنعك من دخول هذا البيت ثانية ومن رؤية ابنة عمك!

فلم يستطع بوسي أبداً الدفاع عن نفسه لأن طريقته كانت خالية تماماً من الشرف، فانسحب مجروحاً، وهذا الفشل الذريع زاده حقداً على المجتمع كله.

وانتهى فصل الحب الذي منحته نينون لعشيقها الجديد بعد أن تعبت منه. فمنحته إجازة أبديّة، ولأنه أراد بإلحاح أن يستمرّ بعض الوقت في معاشرتها، فقد كرهته وقالت له: لقد قضيت وقتك، فاذهب الآن وفتّش عن امرأة أخرى تفوز بها. وإني أتمنّى أن تعيش متمتّعاً بسواي!

وراح سافيني يبحث عن عزاء هو بأشد الحاجة إليه، في مراودة امرأة ممتعة هي مدام جوندران، التي تسمّى لولو. وكان زوجها يحاول دائماً ألّا يكون غيوراً، فالغيرة عادة قبيحة لا تليق إلا بالرجعيين! لذلك كان يقدم لها في كل مرة متحذلقاً جديداً. وسافيني، بعد أن فاز بها، راح، حسب عاداته المرذولة، يسخر من الفارس ألبيرشقيق ميوسنس، الذي لم يكن

دوره قد أتى بعد. وغضب ألبير من سخرية سافيني منه فنعته ذات مرة بالثرثار، فتبارازا من أجل ذلك حتى الموت، وكان الموت من نصيب زوج المركيزة الحسناء.

ولا شكّ بأنها نهاية مضحكة لحياة طائشة. وكانت المركيزة في مقاطعة «بريتانيا» الفرنسية عندما تلقّت الخبرالمؤسف، فهرعت إلى باريس. ولم تفعل هناك شيئاً إلا أنها طلبت من لولو خصلة من شعر زوجها كان قد أعطاها إياها.

أما نينون فقد وقع اختيارها الجديد على السيد دي رامبوي الذي كان أحد الأصدقاء الحميمين للمركيزة دي سافيني! لكن، هل كانت تلك صدفة أو خباثة؟... هذا ما لا يعلمه أحد. المهم هو أن نينون استطاعت أن تنتزع من تلك الحسناء التي تفوقها فكراً وأدباً وفضيلة، كلّ الرجال الذين أسرهم سحرها.

وكان أنطوان دي رامبوي يملك كل خصائص العاشق الناجح ، فهو ذو شباب وأناقة وجمال وثقافة. وكان باستطاعته أن ينظم الشعر كذلك فيأسر به قلوب النساء.

وكانت نينون، عندما تغرم برجل، مستعدّة أبداً لمنحه كل شيء في سبيل حبه، وكل ما هو ضروري لتجميل هذا الحب أو هذه العلاقة. فليس ثمّة متاجرة ولا مساومة. لذلك تمّت علاقتها برامبوي بسرعة. ومدّة «العقد» معه كانت كمدّة «العقد» مع سافيني. قالت له: أعتقد بأنني سأحبك لمدّة ثلاثة أشهر، تلك هي الأبديّة بالنسبة لي!

فلم يطلب هو مزيداً عن ذلك، لأنه كان أكثر الرجال رزانة في حبه

واحتراماً لنفسه. وبعد مضيّ عدة أسابيع فقط، شعرت نينون بالملل وراحت تفتش عن رجل يستطيع أن يثير فيها شهيّتها الضارية.

قيل لها ذات يوم الشيء الكثير في مدح رجل لا تعرفه فسألت رامبوي نفسه عنه قائلة: ذلك الرجل، هل هو جميل؟ أنا بحاجة إلى طعام جديد!

وبعد هذا لم يستطع أن يداوم على علاقته معها لأنه هو أيضاً لا يحبّ الاستقرار في الحب بل يحب التبديل، لا يهمه أن يتعلّق كثيراً بالمرأة، ولذلك انفصلا، لكنهما بقيا صديقين. وحين تزوّج بامرأة جميلة يحبّها، أصبحت نينون صديقتها المفضّلة.

لكن أية نزوة غريبة جعلت نينون تفتح باب مخدعها للمركيز دي فاسي الذي سخرت منه هي وسافيني؟ هل هي ثروته الطائلة؟ ام سمعته المشؤومة؟ ذلك أن جميع النساء اللواتي أحببنه دخلن الدير... أما نينون فقد وجدته ذا زهو غريب بنفسه. ومن ثَمّ أخذ يفتش عن صفة مميزة فيه وترك نينون بلا عزاء إن هي حاولت التفلّت منه.

وبعد علاقة نينون به لم تجد لديه شيئاً مغرياً. وكل ما في الأمر أن أنفاسه كانت قوية كأنفاس الثور.وفي اليوم التالي قال لها معبّراً عن جودة صحته وشهيّته: أنا لا أشعر بمعدتي وأوجاعها اليوم. فأجابته قائلة:

ـ وهذا ما أعتقده. وعليك أن تجبر أصدقاء غيري على الاعتناء بها.

وكانت الكلمة قاسية بالنسة له، لأن نينون سئمت منه وساعة الرغبة قد مضت. والتحق المركيز بصفوف العشاق السابقين.

نينون والزنادقة

ذهب السيد رامبوي دون أن يقول بأن حياة نينون لو لم تكن علاقات غرامية متواصلة، لما وجدت في مجتمع عصرنا هذا المركز الذي تشغله. لكنها كانت تعتني دائماً بشيء هامّ هو الّا يطغى جسدها على تفكيرها.

وكتب عتها جارها تالمان دي رايو يقول بدون تملّق: « هي فتاة حالمة جداً، تترك نفسها في أسىً هادىء حتى أن الذين لا يرونها إلا في صحبة غيرها لا يجدونها جديرة بسمعتها كمحظيّة، لأنها تظهر أبداً بمظهر المتحمّس للفكر، والمشجع لجميع الذين يعرفون أن يتذوّقوا اللذّة الفنيّة، والمهتم بمناقشة رجال الفكر بشتى الموضوعات.»

لم تكن نينون تملك جمالاً شهوانياً ولكنها كانت كيفما اتجهت تثير الرغبة. وقد لخّص الفلكي الهولندي الكبير كريستيان هيجنس، الذي عرفها مؤخّراً، صفاتها برباعية من الشعر خبيثة، قال:

عندها خمس آلات أغرمتُ بها:
الاثنتان الأوليان يداها. والآخريان عيناها.
ومن أجل الأخيرة ، الخامسة التي بقيت،
عليك أن تكون لبيباً...

وكان ذكاؤها وقلبها الطيب يجعلانها رقيقة ورحيمة مع أصدقائها السابقين، ومن الذين أثّروا على تكوينها الفكري كان أكثرهم: إيفيتو، وألبين ومارا وخصوصاً سان أفريمون وكان نصيبها من المشاركة كنصيب أي من الناس الأذكياء الذين يتحمّسون عند التلويح لهم بالأفكار الجديدة.

ولم تجعل نينون من التشاؤم فلسفة تثير عليها، بل على العكس من ذلك جعلت منه سلاحاً في المعركة. قالت ذات مرة:

ـ هناك الكثير كموضوع للشكوى إذا تحدّثنا عن الديانات كمنقذة لنا من العالم.

وحتى أنها تجرّأت على السخرية من التقاليد الدينية وخصوصاً «أربعاء الرماد»، فعرضت على الكاهن الذي يحمل الصليب ويرسم بها الإشارات المقدّسة على المؤمنين، أن يقول، بدلاً من خطابه المعتاد « عليكم أن تتركوا الغراميات! عليكم أن تتركوا الغراميات!»

وحينما مرضت مرة لم ترفض أبداً تقبّل الاعتراف والقربان المقدّس. وبنوع من الاحترام الإنساني قادت كاهناً ذات يومٍ إلى صديق لها يحتضر رافضاً تقبّل القربان، وقالت:

ـ أبتي، اعمل واجبك وأنا أؤكّد لك بأنه بالرغم من احتفاظه برشده، لا يعلم عن هذا الأمر أكثر منك.

كانت نينون غريبة ومتناقضة، لا تحب الجديّة في الحياة.

فذات يوم، إذ كانت أعياد الآلام، وكان الغناء محرّماً، طلبت من «بلو» أغنية، فلم يرفض بالطبع، لأن الآمرة هي نينون. في هذا الوقت، وبناء على

طلب الكونت دوبيجو مموّلها الأمين منذ عدّة سنوات، انتقلت نينون للسكن في حي سان جرمان، المحلّة التي أخذت ترتفع فيها البنايات الأنيقة.

البساتين كانت رائعة، والهواء نقيّاً، والجوّ كان بعيداً عن جوّ المدينة المؤذي.

أمّا كولون المموّل الأول فحالته كانت تسير من سيء إلى أسوأ دون أن ينقطع لحظة واحدة عن الشرب. وإذ لم تفلح في تحسين حالته، استبدلته بمموّل آخر هو شاب في الثامنة عشرة من العمر اسمه ميشال جيروم مورو!

أعجبته فعبدها وصار يتبعها كظلها كلما سمحت له بذلك، ويرهقها برسائله الغراميّة لأنه كان هو أيضاً أبيكوريّاً من فصيلتها، وغنياً. ولذا لم يكن من المستبعد أن يهب ثروته نينون، ثروته كلها. ولم تكن نينون تشتهي هذا الصبي الغرّ لأنها لم تكن حتى إلا الرجال. ولذلك كان يظهر أمامها كالمسحوق تماماً وكأنه بلا شخصيّة، أو كأنه أمام ملكة. على هذا لم تستطع أن تقبل به عاشقاً لها مقابل أي شيء في العالم. هذا النموذج من الرجال كان يرعبها. وقالت له:

ـ لن أكون لك أبداً، ولن أحبك مطلقاً. أنا أقدّر صفاتك ـ على الأقل حين تجد القوّة للتكلّم أمامي ـ لكن لا تأمل بشيء عدا صداقتي. فأجابها قائلاً:

ـ ألا أستطيع أن أراك وأسمعك؟ إن كان هذا منك يكفيني.

وحين عرض عليها بعد ذلك أن يكون مموّلها لم ترفض اعتقاداً منها

أنها تخلّصت من ثقل ظلّه بهذه الشروط. وحلمت كذلك بأنها ستتابع حياتها الحالمة اللذيذة في هذه المحلّة الفاتنة. وأثارت إقامة نينون في هذه البقعة ضجّة كبيرة ضعضعت حلمها بالهدوء والسكينة، ذلك أن الضجة كانت ضجة نينون نفسها في هدوء المدينة. فبين عشيّة وضحاها دارت الأحاديث حول هذا القصر الجديد الذي يضاء ليلياً كشعلة مزدهرة، وهذه الموسيقى، وحول هذا الغناء ـ غير الديني طبعاً ـ الذي راح يصدح من النوافذ. وتساءل الناس: من تكون تلك المرأة الأنيقة التي يتحلّق حولها كل هؤلاء الرجال؟ الرجال وحدهم، دون النساء؟ ولماذا تحجم ربّة القصر عن زيارة الجيران؟

ـ أوه! لا بدّ أنها ليست «شيئاً» محترماً ، يا صديقتي. فإن مثل هذه الأمور لا تحدث أبداً عند النساء الشريفات! لا بدّ أن يكون هناك شيء معيّن يجتذب الرجال بهذه الطريقة...

ـ ما هي إلا محظية، وهؤلاء هم عشّاقها.

ـ وإلامَ نتحمّل هذه الإهانة؟ وهل تعلمون أنها، وكما يقال، عدوّة للدين؟

ـ بالتأكيد، فهي تنظر بازدراء وسخرية لكلّ الأشياء المقدّسة. الأب بواسروبير يذهب لعندها دائماً... وكل أب يفعل هكذا لا يكون أكثر من شرير يمارس العادات المرذولة! وهل تعلمون ما يقال حول ذلك؟ يقال بأنها تخيط بعض أثوابها على شكل بذلة الكاهن المقدّسة.

ـ هل هذا ممكن؟ أية فضيحة في هذا! البدلات المقدسة تخاط على أشكالها ثياب لفتاة كهذه؟ هذا ما لا يمكن السكوت عنه!

ـ يجب أن نخبر سيادة الأب أوليه!

وبالفعل فقد ذهب الجميع لإخبار الكاهن المرعب بما يحدث. فقال لهم: أعرف كل شيء عن هذه المرأة التي لا تزور الكنيسة أبداً، والتي تعيش في غمرة الخطيئة ملقيةً هؤلاء الناس الطيّبين في شبه قلق على كل معتقداتهم.

أصبح المنزل الملعون مراقباً بصرامة. المنزل الملعون حيث يجعلون من الليل نهاراً، وحيث السادة النبلاء يدخلون إليه وكأنهم داخلون إلى بيوتهم، وحيث تسمع الضحكات المجلجلة وصخب الراقصين وقرقعة زجاجات الخمر، حتى أن بعض السامرين يخرجون في أواخر الليل إلى الطرقات وقد تعتعهم السكر فيضجّون ويوقظون النائمين.

ولم تكن نينون تدري بالعاصفة الموشكة على الهبوب، فكبار الرؤوس في الحيّ رضخت تحت قدميها، وأولّهم الرئيس تانبونو الذي يسكن على مسيرة خطوتين منها في أوتيل ضخم، والذي أصبحج «رجل البلاط» عند الحسناء التي كانت تسخر منه.

وعلمت الرئيسة أن زوجها يأتي لزيارة هذه المحظية فغضبت، فقال لها:

ـ أنا لا اعلم شيئاً عن ذلك يا زوجتي الصغيرة. لكن نينون تعزف على القيثارة كما لا يعزف أحد في باريس، وهواية الموسيقى عندي هي التي تدفعني إلى الذهاب إليها.

وراح يتحدّث عن موهبتها الموسيقيّة بحماسة فائقة أجبرت الرئيسة الزوجة أن تقول له: أنا أريد أن أسمع عزف تلك المسمّاة نينون.

ـ ولكنك لا تستطيعين الذهاب إليها يا عزيزتي، فالمكان لا يسمح بدخول واحدة مثلك إليه.

ـ فلتكن ستارة بيننا حتى لا يراني أحد

ـ لكن كيف تريدينني أن أحمل نينون على السماح بدخول امرأة عندها وهي لا تودّ رؤيتها، مع أن نينون متواضعة جداً. فبقربها تجلس دائماً امرأة اسمها جان وهي رصينة مثلك.

ـ ألا تمنعها إذن من النوم بأحضان جميع الرجال؟

ـ لا مع جميع الرجال، بل مع الذين يتمنّون ذلك بالطبع!

ـ أنت تتكلّم عن نفسك إذن؟

وعندما نقل الرئيس خبر هذه المناقشة إلى نينون، محاولاً أن يحملها على السماح بزيارة زوجته لها على تلك الطريقة، أقذعت في إهانته حتى احمرّ وجهه وأضافت قائلة: ذلك لأنني أعرف الكثير من الرجال الذين أضافتهم في سريرها الطاهر.

كانت نينون تعرف كيف تهاجم بقساوة إذا تحدّاها أحد. وبينما كان الكاهن أوليه يتساءل عن الطريقة التي يفتتح بها باب الاعتداء على هذه المرأة الخاطئة، جاءت الصدفة الطيّبة فساعدته. وكان ذلك في أعياد المرافع سنة 1651. وكانت العادة في مثل هذه المواسم أن ينقطع الناس عن أكل الدهون واللحوم. أما عند نينونفلم يكن ذلك يثير اهتمام أحد على الإطلاق: لأن أيامها أعياد دائمة، حيث الخدم يتتابعون إلى الموائد حاملين أواني الطعام من مختلف الأشكال والألوان: فهناك الطيور

واللحوم المختلفة. وتساءل الغاضبون على نينون: هل من الممكن حدوث تلك المعصية؟ يالله! وأصبحت النساء التقيّات المجاورات لنينون على وشك رؤية نيران السماء تسقط على حيّهم غضباً. وذات مساء، مرّ كاهن من تحت نوافذ الصيادة الحسناء، ولنقل بأن ذلك حدث صدفة... لكن الكاهن جعل يتمهّل في مشيته متظاهراً بالقراءة في كتاب الصلاة، فسمع القهقهات والأصوات المترنّحة، وفجأة أحسّ بشيء يمرّ أمام أنفه ويسقط لى الأرض. فانحنى الراهب بخفة والتقط عظمة مخذ طازجة لفرخ من الدجاج!

وهكذا أمسكهم بالجرم المشهود!

وأسرع الكاهن إلى الأب أوليه، وروى له الحادثة وهو يلهث ثم أخرج من جيبه الدليل وراح يتخبّط في رواية الإشاعات والأقاويل حول المحظية المخجلة وسأله: هل سنسكت ايضاً؟

وفي الحال قدّم الأب أوليه شكوى مستعجلة إلى قاضي شارع «سان جرمان دي بري» الذي أدرك سخافة القضيّة، لكنه بحسب واجبه، يريد المحافظة على قداسة الدين.

وحين أحسّت نينون بالخطر بعد أن أنذرها القاضي، أرسلت له اثنين من أقوى أصدقائها نفوذاً وهما الدوق دي كاندال والماركيز دي مورتمار اللذان أثّرا عليه فخنق القضيّة. وإذ ذاك توجّه الأب أوليه في ندائه إلى كهّان البلاط الذين راحوا يتوسّطون لدى الملكة جان النمساويّة لاتّخاذ التدابير القاسية ضدّ الصيادة الحسناء. وتساءبت الملكة قائلة: باستطاعتنا أن نرسلها إلى إصلاحيّة التائبات؟... ولحسن الحظ صادف ذلك مجيء

بعض الأصحاب كالسيد بوترو، فأجابها قائلاً: ولكن يا سيدتي، هي ليست بتائبة.

وتتابعت الشكوى المتعصّبة ضدّها. وراحوا يقولون: يجب أن نطهّر باريس من هذه الوثنية الخطرة التي لا تكتفي بممارسة الخطيئة بل تعلن ذلك صراحة.

وفي النهاية، وتحت تأثير الإلحاح المضجر، اضطرت جان المساوية إلى كتابة رسالة تبلغ فيها نينون دي لانكلو بوجوب احتجازها في دير تختاره هي إذا شاءت.

وحمل الرسالة أحد رجال الشرطة إلى نينون التي استلمتها وقرأت ما فيها، وبلطف بالغ أعادت الرسالة إلى الشرطي قائلة: بما أن طيبة الملكة سمحت لي باختيار الدير الذي سأحتبس فيه، فأرجوك أن تبلغها بأنني اخترت دير «جرانكور ديليه».

وإذا علمت بأن دير «جرانكور ديليه» الذي تحت إدارة قوانين سان فرانسوا داسيز، هو ملجأ أقل الراهبات تديّناً وتعفّفاً وأكثرهنّ فجوراً، لم تدهش لذهول الشرطي من الجواب المفاجيء. وتحت إمرة الواجب اضطر أن يبلّغ الجواب للملكة محاولاً صياغته في أسلوب لطيف اعتقاداًمنه ان الملكة ستقفز عن كرسيّها وتطرده من وجهها. ولكن الملكة عندما سمعت بالجواب أغرقت في الضحك قائلة: يا لها من شريرة، فلتذهب إلى حيث يعجبها.

وكان هذا الجواب إنقاذاً لنينون من المأزق الذي حشرت نفسها فيه. وتحت تأثير وصيّوة معلّمها الأكبر سان أفريمون الذي كان يقول لها:

«فكّري كما تشائين، لكن أصغي للآخرين» قرّرت أن تحاول تبديل حياتها مستقبلة هكذا أقل عدد ممكن من الفلاسفة وأكبر عدد ممكن من الشعراء، وصارت تذهب إلى الكنيسة وهي متّخذة صفة امرأة ذات سمعة طيّبة. وأعلنت في الجرائد المحليّة بأنها ستسافر إلى أميركا، حيث الثروة، كما يقولون، متيسّرة بسهولة.

وبعد ذلك الحين تركوها وشأنها.

وفي أحد أيام الصيف ذهبت إلى كنيسة سان أوستاش، حيث يجتمع أكثريّة الناس وكانت متأكّدة من أنهم يرونها. وجلست بقربها امرأة محبوبة وثرثارة هي جان باجي التي راحت تحدّثها دون أن تعرف شخصيّتها، ونينون تجيبها بلطف وتهذيب حتى أقنعتها بفضيلتها بعد فترة قصيرة من الوقت.

ونهضت السيدة باجي في الحال وسألت جان دوبون رئيس الملاهي والاستعراضات الملكيّة: من تكون تلك السيدة الكبيرة الجميلة، الجالسة بجواري؟

فأجاب الصديق الذي أراد أن يلعب دوراً على السيدة فقال: إنها امرأة اسمها مدام داربلونكور، من بريتانيا وقد جاءت من أجل دعوى مقامة عليها.

وعندما رجعت المرأة إلى جوار نينون، سألتها ببساطة قائلة: عليك إذن شكوى؟لا أنا باستطاعتي أن أخدمك.. وثقي بأنني أسدي لنفسي متعة رائعة بخدمة شخص حبيب مثلك. وإن مدام باجي كانت فاضلة لدرجة كبيرة. وارتبكت نينون لبرهة من الوقت ولم تدر بماذا تجيب حتى

إذا التفتت ناحية اليمين والتقت عيناها بعيني دوبون الضاحكتين فهمت اللعبة. وأدركت أن جان تخترع للمرأة دعوى موهوبة.

وفي تلك اللحظة مرّ بالقرب منهما الأب «بوارسروبير» فألقى التحية على نينون فسألتها مدام باجيه قائلة: إذن أنت تعرفين هذا الأب؟

ـ بالطبع، فأنا جارته لأني أسكن في الضاحية.

وعندما اعترفت لها قائلة: أنا لن أسامحه أبداً بتركنا من أجل واحدة خسيسة اسمها نينون. قالت:

ـ أوه، يا سيدتي! وهل تعتدين وتصدّقين كل ما يقال عنها؟ فقد تكون في الحقيقة فتاة شريفة. ولكن من ذا الذي لا يتعرّض لمواقف خبيثة؟

وعند انتهاء القدّاس استأذنت نينون من جارتها وانصرفت. وعلى الباب التقت مدام باجي بالأب بواسروبير الذي قال لها: لقد تحدّثت كثيراً مع نينون.

ـ هل أنت مجنون؟ أأتحدّث أنا مع هذه المخلوقة؟

ـ ولكن، الفتاة الساحرة التي كانت جالسة بقربك هي...

ـ ياه! هذا كثير.

في البدء غضبت جداً وراحت تشتم السيد دوبون الذي أخذ يضحك حتى دمعت عيناه ولكنها إذ هدأت تذكّرت كل شيء ثم فكّرت في الحقيقة المنطقيّة التي استنتجتها من هذه الفتاة الساحرة الجذّابة. وتوسّط دوبون بعد ذلك من أجل جمعهما معاً وصارتا صديقتين حميمتين.

ونينون أصبحت الآن تخفّف من صخبها وضجّتها. وبالرغم من أن الجمر الذي أشعله المتعصّبون لم يكن كثيراً، فإنه لم ينطفىء بسرعة.

وحمل لها أنطوان دي رامبوي مرة رسالة من هركيل دي لاجر، الذي كان عشيقاً لمدام دي سوز لمدة من الزمن، فعرفت مسبقاً أنها لا تستطيع احتماله، ورفضت أن تستقبله.

وانعدمت ثقتها برجال الكنيسة. وعند المناقشة فيما بينهم كان همّهم التباهي والتفاخر كالديوك. لذلك كانت تتمنّى أن تلتقي بواحد منهم فقط من أجل أن تعرف إذا كان شريفاً ومؤمناً حقيقياً وذكياً وواسع الإدراك...

وأخذ الأب فرانسوا تالمان على عاتقه إنقاذ نفسها من الخطيئة الكبرى. ولكن عليه أوّلاً أن ينفض عن نفسه غبار الكسل الذي يجعله ينام حتى منتصف النهار وهو يحلم بأرسطو. وعندما أخذ يهدي نينون راح الجيران يراقبونه بدقّة. وأخيراً لم يستطع إلا أن يمسك بيدها ويقبّل ذراعها. وأرادت أن تهينه بكلمات قاسية جداً لكن لم تفعل، لأنها هي حقيقة دخلت في مملكة الرياء والمداهنة، ولأنها تستقبله أيضاً وتتظاهر بالإصغاء إليه. وقالت له مرة وهي تسخر منه: إنك تستخدم كثيراً من الحرارة لتقودني إلى القداسة.

وكانت في تلك اللحظة تكاد تنفجر من الاضطراب والحنق. وأمّا الكتّاب الذين كانت تستقبلهم فهم في الحقّ رجال أفذاذ وأنيقون، وخفيفو الظل، أمثال سان بافان وبواسروبير وبارو وشابال. ولم تكن أشعارهم الظريفة هي التي تأسرها ولا جمالهم بالطبع. فسان يافان عمره ستون عاماً وأحدب الظهر. وبارو الذي كان أول عشّاق نينون فقد الآن جاذبيّته وجماله لإفراطه في الدعارة. وبواسروبير جاوز الخمسين من عمره. وأما شابال فهو الشاب الوحيد بينهم ولكنه يفتقد إلى الجمال ولا تفارق زجاجة الخمر يده. ومع ذلك فهم يلاحقون النساء ويصرّحون لهن بحبّهم

وخصوصاً لنينون حيث يؤكّدون لها موتهم مئة مرة باليوم لعدم مبالاتها بهم، وهي بالنسبة لهم موضوع كتاباتهم ومادّتها السمينة فماذا تراهم يفعلون إذا وضعتهم ذات يوم خارج بابها؟

ولكنهم كانوا يسلّونها في الحقيقة، فهم شعراء لا يهتمّون بالنظريات والتراث القديم بقدر ما يهمّهم العيش في حرّية وتنعّم وثني.

وأمّا أعنف وأبرز هذه الشلّة وأجرؤها فهو «الماجن الأكبر» و«أمير الزنادقة» بارو. فهو يسير في طريقه ضمن خطّة تسمح له بالانصراف إلى جميع ملذّاته دون خوف أو همّ، ويرفض كل منطق وكل علم للأخلاق. وهو ذو تفكير ماديّ يعلن لكل من يسمعه بأن التفكير والتعقّل والإدراك هي دائماً منبع آلام الناس. وأن كل ملذّاتنا وأفراحنا إنما تصدر عن الحواس فقط وإذن يجب على المرء أن يقضي وقته كله بحرية وأن يحاول تقليد العصفور بحياته. وهذه النظرية الفكرية لم تستطع ان تجذب نينون إليه، فانصرف دي بارو عنها إلى القيام بسفر طويل عبر مقاطعات فرنسا كلّها بحثاً عن المتعة.

فحلّ شارل دي ري، سيد شارلفال، محل الراحل، وهذا الـ «شارل» هو السحر نفسه. كان لطيفاً رقيقاً حييّ المظهر يحرّك النساء بأجوائه اللذيذة التعي يخلقها. وحزنه الهادىء الذي يعبّر عنه وجهه كان يحرّض المرأة على هدهدته. والرجال العصريّون عادة يفوزون بالنساء بواسطة مباذلهم وحيويّتهم الصاخبة، بينما كان يفوز هو بهن بهذا الحنان الذي يلامس فيهن وتر الأمومة. وبما أنه كان واثقاً من نفسه وفخوراً بانتصاراته السريعة فقد كان يكتب للمرأة التي يريد بكل جرأة محدّداً لها مكان موعد التقائه بها ثم يذهب إلى الموعد فيجدها بانتظاره. فأعجب نينون كثيراً

بتفكيره و بمظهره ولطفه لكنها لم تحب جماله الطبيعي لأنه لم يكن يثير رغبتها. وسألها مستغرباً: لماذا ترفضين؟ ومن قال إنني لن أحمل لك متعة جديدة؟

ـ رغبتي هي التي تحمل متعتي، وأنا لا أرغب فيك، وبالفعل أنا أحب الحب وليس الرجال.

ـ إذن، ماذا يجب أن يفعل الرجل لكي ينال إعجابك؟

ـ أن يكون شيئاً آخر غيرك. فالآنسات الجميلات كالفتيان الجميلين لا يحرّكون في نفسي رغبة ما. والعاشق يجب ألا يكون طفلاً يدفعني لأن أحمله لكي ينام وأهدهده بل أريد أن يوقظني هو..

ـ ولكنني لست طفلاً وسأثبت لك ذلك يوماً ما.

وفجأة طوّق نينونِ بذراعيه محاولاً جذبها نحوه لتقبيل عنقها، ولكنّ نينون لم تكن أبداً مثل باقي الفتيات البريئات اللواتي يضطربن أمام هذه الجرأة والملاطفات المفاجئة، فدفعت شارل بقسوة وعنف. وإذ دهش من ردّة الفعل انفجرت بضحكة مجلجلة وقالت له: لو كان غيرك لوضعته الآن على الباب، ولكنني أسامحك لأن النساء بحماقتهن أوهموك بأنك لا تقاوم.

ـ لكن أخيراً، يا نينون قولي لي إنك في يوم ما ستغيّرين رأيك.

ـ انتظر إذن نزوة مني. ثم أكملت كلامها بسخرية قائلة: إذن باستطاعتك أن تحمل لي تلك المتعة الجديدة التي حدّثتني عنها... وضحكت بسخرية، وقامت تفتش عن سعادة أخرى مجهولة.

ضربة صاعقة

*

تقدّم الأب بواسروبير نحو المرأة الشابة وخاطبها قائلاً: أقدّم لك صديقي الذي آمل أن يعجبك يا نينون الجميلة، ولقد سمحت لنفسي بأن أقدّمه بدون أن أُنَبّئك من قبل. فهو يتحرّق لأن يتعرّف بك. وإن اسمه هو لويس دي مورناي، ماركيز فيلارسو.

ورفعت نينون عينيها نحو الرجل الذي انحنى أمامها فالتقت عيناها بعينيه وشعرت بصدمة عصبيّة تجتاحها وباضطراب يكتد يخنقها، وتركت يدها في يده. ومنذ تلك اللحظة تمنّى أن يحتفظ بها.

وكان ذلك مفاجئاً كضربة الصاعقة.

وفيلارسو فتى أسمر جميل ونموذج للرجال الذين تتمنّاهم نينون، وهو كبير الجسم ممشوق القامة وذو مشية فخورة وبأس مهيب. وكان رجل سيف ومن عائلة نبيلة وقديمة، وضابطاً ملكياً. وكان بالوقت نفسه رجلا عصرياً ومتحرّراً، يرفض جميع المعتقدات الدينية في حياته العملية، ولمنه يصر على أن تكون تلك المعتقدات متيسّرة للشعب.

وفهمت نينون كل ذلك من اللقاء الأول. وعرفت من أصدقائه بأنه

متزوّج من امرأة جميلة أنجبت له أربعة أولاد. ولم يكن ذلك ليهمّ نينون في شيء، فالزوجة، جميلة كانت أو غير جميلة، لا يمكنها أن تربط زوجها أو تخفّف من حدّة الرغبة التي تجتاح نينون نحو الزوج.

لم تتزيّن نينون مرة في حياتها، ولم تتبرّج أو تهتم بمظهرها كما فعلت في ذلك اليوم، فقد كانت تنتقل بخفّة ودلال وتغنّج تتبعها عينا فيلارسو إلى كل مكان وهما تفيضان بالرغبة، وكانت هي تحسّ بهما ولم تحسّ بغيرهما طوال السهرة بالرغم من كثرة الرجال المحيطين بها. كانت تشعر كأنهما نداء يناديها.

ولم تدعه لقضاء تلك الليلة معها، لأنها كانت تريد أن تجعل لهذه العلاقة أهمية أكثر من أية علاقة غيرها، ولذا فضّلت أن تجعله ينتظر قليلاً لتزداد رغبته وشوقه تأجّجاً. فرأته يخرج ويكاد يتمزّق، وعندما طلب الاذن بالانصراف منحته يدها فلواها تحت يده السميكة بشدّة وهو يرفعها إلى شفتيه ويطبع عليها قبلته بقوّة وجرأة. كان يعرف أنه أصبح يملك حقاً بذلك. فأغمضت عينيها بضع لحظات يغمرها الفرح، فغمغم قائلاً: إلى اللقاء غداً يا سيّدتي...

كانت تريد أن تجيب، لكن حنجرتها كانت ناشفة فلم تستطع الكلام، ولم يلمح هو إلا ابتسامتها التي تراقصت على شفتيها في بطء.

وإذ أغلق الباب تنهّدت تنهّدة طويلة واستدارت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع سان افريمون الذي تمهّل بالخروج... وقال بلهجة تتراوح بين التهكّم والاحترام: عيناك كنجمتين... ولكن لماذا تركته يرحا؟ يجب على المرء أن يستغنم الفرصة السانحة. فابتسمت، ثم ارتمت على أقرب مقعد. أما هو فتابع قائلاً:

ـ ماذا تنتظرين لكي تندفعي وراء هذه النزوة الجديدة؟ ألا تدرين أن تأجيل المواعيد قد يفسد المتعة تحت ظروف طارئة لا يمكن التنبؤ بها؟ فقالت في ابتسامة عصبية:

ـ أوه! أتمنى من كل قلبي ألا تكون هذه النزوة خطرة، فلقد مللت تلك النزوات السهلة. فقال:

ـ أما أنا فأتمنى ألا تضيّعي رأسك تماماً. فأنا لا أريد أن أنكر بأن الضابط صاحب السبعين كلباً باستطاعته أن يلقي الاضطراب في حياة نينون وفي صفائها.

ـ آه! هل فيلارسو ضابط صيد؟

ـ نعم، هو صياد بلا رحمة. فهو على الحصان يكاد يشبه السنطور... آه ما «أبدعه» حين يطلق كلابه في إثر الخنزير البرّي... وردّدت نينون وهي في هيئة من يحلم، قائلة: سنطور!

ـ لكن لا تذهبي بعيداً في أفكارك، فليس هو بالصياد الوحيد في فرنسا. هناك على ما أظنّ من هو أشجع منه. فليس فيلارسو بالشخصية التي تستحقّ الاهتمام.

ـ أنت تعرفه؟

ـ أنا أعرف عنه قصص مسليّة وشيّقة... لكنها ليست بفاضلة.

ـ أنت تعرف بأن هذه المسألة لا تهمني كثيراً. إحكِ لي. أريد أن تحكي لي كل ما تعرفه عنه، حتى ولو كانت أشياء سيّئة. فأنا لا أريده أن يكون رجلاً عاقلاً أو رجلاً قدّيساً... لأنني لا أريد أن أرى رجلاً قويّاً في سريري.

ـ فيلارسو أبعد ما يكون عن ذلك. هل سمعت أحداً يتحدّث عن ماري دي غار؟

ـ لا أظن...

ـ كانو يريدون تزويجها بفيلارسو عندما كان عمره لا يتجاوز العشرين عاماً، وهي في السادسة عشرة. لقد أعجبته كما أُعجبت بعينيه السوداوين وبخصلات شعره السمراء... التي تشبه شعرك تماماً.

ـ ولكنني لست في السادسة عشرة.... للأسف!

ـ وهل تشتكين... فأنت لم تكوني املكين هذا السحر في تلك السن. وعلى كل، فماري دي غار انبهرت بخفته وحسنه، وبأشعاره التي ينظمها لها، وبعض الرسوم التي صوّرها... وهكذا في موعدين اثنين استطاع أن يبلغ نهايته مع تلك الفتاة الساذجة التي فقدت عذريّتها.

ـ حسناً! ولكن هذه مهنته، عليه أن يجاهد في الصيد ويطارد، وعلى الفتاة أن تدافع عن نفسها...

ـ يا جميلتي العزيزة، هل أنت محسودة من تلك الفتاة التي فقدت عذريّتها؟ وصمت قليلاً ثم تابع يقول: وبعدئذ ـ أي بعد أن منحته نفسها ـ رفض أن يتزوّجها.

وعند ذاك لمحت نينون في ذاكرتها سان إتيان وما فعله معها. فعضّت على شفتيها قائلة: هذه هي اللعبة العادية، أليس كذلك؟ فعندما تقبل النساء بالعبوديّة، يعاملن هكذا! وتابع هو قائلاً:

ـ لم تجرؤ الفتاة المسكينة اليائسة على الشكوى، وتزوّجت بواحد

اسمه جاك دي كاستيلنو، بينما تزوّج فيلارسو بامرأة فاضلة وشريفة هي دنيز دي لافونتين ديش، ابنة الملكة...

ـ حسناً! وماذا يدهش في تلك القصة؟ فماري غار استطاعت أن تتزوّج رجلاً شريفاً وتتمتّع به.

ـ لكن المسألة هي أن فيلارسو لم يتركها وشأنها، فبعد أن تزوجت عاد فاتّصل بها وفتحت له ذراعيها لأنها كانت لا تزال تحبه... وأصبح السرير الزوجي لهما في غياب الزوج....

ـ أيّ زوج مضحك هو هذا... في ذمتي أنه يستحقّ الخيانة.

ـ والمضحك أكثر هو أنها لا تمنع نفسها من التفكير في الزوج والشعور بالحب العنيف نحوه... وكانت تتنهّد بصوت منكسر لاهب ـ لنقل من الاضطراب العاطفي ـ قائلة: «هل... هل من الـ... معقول أن.... أن... أخون هذا الرجل الشريف؟» وأحياناً كان النغم يختلف، فتقول: « أيها البطل الكبير، هل ستغفر لي؟» وفيلارسو كان ينقل إلى كل مكان هذه التوبة المتأخّرة ويسخر منها...

ـ أوه! هذا الندم وهذه التوبة، لا بدّ أنهما كانا يحملان له ـ أعني الزوج ـ متعة حارة! أما فيلارسو فقد أحسن صنعاً في احتقاره هذا النوع من النسوة والحماقات...

ـ لكنني أتساءل، ترى لأيّ نوع من النساء يحمل احتراماً؟ فبعد ذلك، عاد إلى رؤية ماري، لكنه لاحظ أن صهرها صار يتودّد إليه أكثر من اللازم مظهراً له المحبة القائمة حتى قال له ذات مرة على انفراد: « لكي لا نتقاتل، أرجو أن نتفاهم أولاً، فإما أن نتخلّى عن ماري لي، وإما أن أتخلى لك

عنها. والحكم في القضية يرجع لها بالطبع، فالرجل الذي استطاع أن ينال منها أكثر من الآخر، تكون له بلا منازعة.»

واتُّفق على ذلك. وقاد فيلارسو الصهر إلى بيته حيث أطلعه على مئات الخطابات الت أرسلتها له، وقطع الهدايا والتذكارات، ولم يستطع الآخر أن يقدّم شيئاً سوى قوله: « أما أنا فلم تعطني أكثر من القبل! قبل؟ أهذا شيء كثير من امرأة تقول إنها تعبدني؟ سأعرف كيف أنتقم من هذه الخبيثة. وبالفعل فقد انتقم منها بإطلاع جميع الزوّار على تلك الرسائل. فقالت نينون:

ـ الظاهر إنه لا يحبها. لكن ما الذي يهمّني من مسلكه مع النساء الأخريات؟ من هي عشيقته الآن؟

ـ لا أدري بالضبط، لكنني أستطيع أن أعرف...

ـ هذا لا يثيرني ولا يهمني أبداً. الذي يهمني هو ما سأكونه غداً. لأن الغد سيرجعه لي.

وراقبها سان أفريمون وهي تكاد تشعّ برغبتها الوليدة وقال:

ـ يالك من حسناء! كم تكونين جميلاة عندما يحلو لك شخص ما. أنا أودّ لو أكون فيلارسو لبضعة أسابيع فقط... فقالت بحرارة:

ـ أنت مخطىء. فيلارسو سيذهب لكنك أنت ستكون دائماً وأبداً صديقي... انصرف الآن، أريد أن أنام وأن أحلم به.

الحب الكبير

*

التجربة الكبرى انقضت وبعد الليلة الأولى العابرة تحقّق لنينون من فيلارسو ما فاق تصوّرها. وهكذا منحته لقب العاشق المثالي. ويمكن للمرء أن يشعر معه بأنه ما خلق لغير الحب والصيد والحرب. كان متوحّشاً ومهذّباً بنفس الوقت. ونينون اعجبته حتى الجنون، فحاول أن يمنحها كل ما من شأنه أن ينسيها العام وجميع العشّاق الماضين. وفي الفجر، وعندما نام، لاحظت أن لثغره سحراً هادئاً فقد معه ذلك التعبير الساخر الذي كان له في النهار. الحاجبان كانا طويلين، وكان يشيع ظلّ طفوليّ تحت خديه وتحت لحيته الصغيرة. لقد كان حيواناً جميلاً، ولم يعطها أي رجل قبله ما تمنّت أن تعطى. وها هي الآن تجد حلمها مشخّصاً بهذا العاشق الذي يغري حبيبته بالعبوديّة والركوع تحت قدميه. وقالت له نينون في صوت هامس:

ـ الآن أنا لا أرغب فقط... بل إنني أحب أيضاً! لم أكن أدري بأن ذلك كان ممكناً! كم من الرجال مرّوا في هذا السرير حتى أكاد لا أتذكّرهم... أنت حبي الوحيد...

الفكرة التي كانت تشغلها الآن، هي كون فيلارسو قد جاء متأخّراً ولم

يكن الأول في حياتها. لكن أية سعادة فائقة الوصف هي أن يجد المرء، دفعة وبغتة وبدون جهد ومقدمات منه، حلمه يتحقّق أجما ممّا كان يتصوّر... فهي لم تحب الرجال ولم تمارس الحب إلا لقضاء مثل هذه الليلة بأحضان مثل هذا الحبيب. وكأنه الجائزة التي تسلّمتها بعد أن دفعت الثمن طويلاً...

تحرّك فيلارسو وأبعد عنه الغطاء ولفّ على عنق نينون يده. فما كادت نينون ترى ذراعه حتى هاجت الرؤية في نفسها اضطراباً خفياً حرّك جسمها كله وحرّك تفكيرها. وأطبقت بشفتيها على هذا اللحم الأملس. فاستيقظ قليلاً وابتسم وهو يفتح عينيه. كان نومه خفيفاً ويقظته سريعة للغاية كما هي سريعة يقظة جنود الحرب والقتال بعد أن يكونوا قد غفوا قليلاً. آه! يا للعنين السوداوين حيث كانت تضيع نينون! آه، يا لهذه الدوخة الغريبة التي أحسّت بها! وقال لها:

ـ يا جميلتي نينون... فقالت: يا حبي! فأغمض عينيه وتمتم يقول: هل تسهرين عليّ؟ بماذا تفكّرين؟ قالت: بك. قال: ألا تفكّرين في بعض عشاقك السابقين؟ قالت:

ـ لم يعد هناك غير واحد هو أنت... هل ستصبح غيوراً؟

ـ نعم، عندم أحب!

ـ هل تعرف بأنني احبك؟ وبأنه الحب الشامل الكليّ الذي لا يرتبط به المحبّ من أوّل لقاء، بعد الشهوات العابرة.

والآن إذا تيقّظ جيّداً شعرت نينون بحرارة هذا الجسد الممدّد الرائع، فضغط عليها بذراعيه حتى جعلها كالأسيرة، وقال لها:

ـ هل أنت متأكّدة من أن تلك ليست نزوة عابرة لن تدوم أكثر من ثلاثة أشهر؟ أنا أعرف بأن هذه المدة هي الأبدية بالنسبة لك...

فالتصقت به أكثر واخذت رأسه الجميل بيديها وقالت: أنا أحبك. وانا لم أحب أبداً مثلما أحب الآن. عليك أن تصدّقني، لكنني أجهل المدّة التي تدوم فيها سعادتنا. ولكن أستطيع أن أذهب معك إلى الأبدية...

والتصقت شفاههما وأغرقهما الحب في أمواجه.

ومضت بهما الأيام، وقلّما كانا يفترقان. فالترويقة يلتهمانها بشراهة الذئاب جنباً إلى جنب، وهما متعانقان. وعندما تحين ساعة تدفّق الأصدقاء للسهرة كالعادة في الصالون الأنيق، كان فيلارسو يتكدّر ويقول: بالنسبة لي، كل ما يفصل بيننا ولو للحظة واحدة يصبح شنيعاً في نظري. فتقول نينون: وأنا كذلك. فيقول بدون تردّد: هل تعلمين أنني لا أتحمل أبداً أن تضيعي وقتك الجميل في مرضاة هذا أو ذاك من الناس، واستقبال المجاملات، وازدحام العيون التي تشتهيك من كال حدب وصوب! هل تراني سأتحمل ذلك طويلاً!

وذات مرة قالت له: هل تعلم يا حبيب أني لن أستقبل بعد الآن أحداً؟

ـ وهل أنت جادة في هذا القول؟

ـ يا حبيبي أنا لست هنا إلا لك وحدك!

ـ آه، يا حبي! يا اغلى حب!

وفي ذلك المساء أغلق الباب، وبقي مغلقاً كذلك طيلة الأيام التي توالت. وغضب جميع أصدقاء نينون. هل هي مريضة؟ لا أبداً! إذن ماذا

يحدث؟ وانتشر النبأ في المدينة بسرعة البرق: نينون عاشقة.. عاشقة كما لم تعشق من قبل! يا لها من جاحدة! هل هذا سبب كاف لأن يجعلها تتنكّر لأصدقائها؟

وراح كل واحد يجسّد الشخص المختار من بين العشرات ويتمنّى ألّا يدوم ذلك طويلاً. وكان بين هؤلاء من يعرفها حق المعرفة ويدرك ما تنطوي عليه غريزتها الباحثة دائماً عن كل جديد، ويعلم أن بعد كل نزوة تمرّ فترة استراحة تعود نينون خلالها إلى ما كانت عليه من مرح ولطف ورحمة! وفيلارسو، لا يملك، في الحقيقة، شيئاً يميّزه عن عشاقها السابقين. فما الذي يجعله محبوباً لديها إلى هذه الدرجة؟ لا شيء! رجل كالآخرين... نينون عاشقة! إذن يستحيل عليها إلا أن ترضي رغبتها في الحب! وها هو الحب ملك يديها. وما كان استقبالها لأصدقاء إلا من أجل هذه الغاية، فلتذهب الوسيلة إذن إلى الجحيم. لقد بات عليها الآن أن تتخلّص من علاقاتها الماضية ومن حياتها العادية الرتيبة. وذات يوم قالت لعشيقها بإصرار:

ـ من الآن فصاعداً لن أستقبل أحداً مطلقاً. لن أوزع نفسي فأضيّع أوقات هذا الحب الذي نحلم به طيلة عمرنا. لن أعود إلى حياة الملك والضجر بعد أن دخلتَ بي إلى حياة أخرى متجدّدة دوماً.

وهكذا احتبسا نفسيهما في المنزل الخالي وهما في غمرة من عواطف حارّة لا يمكن أن تدعهما يشعران بالملل أو بارتواء الواحد من الآخر.

أمّا سان أفريمون الذي أُبعد كالآخرين، فقد ابتسم في هدوء المطمئن إلى أن ذلك لن يدوم طويلاً فهو أعرف الناس بتلميذته نينون. لكنه اخذ

بتصرّفها تجاه مموّليها دوبيجو وموررو اللذين استقدمتهما لتعلن لهما عدم حاجتها إليهما بعد الآن حتى تمنعهما من حقّ المجيء إلى عندها ومن إزعاجها.

وتعجّب السيّدان المذكوران أيضاً. وفي كثير من الدهشة راحا يجرّان أذيالهما على درج البيت معتقدين كل الاعتقاد بأنها ولا ريب مجنونة كهذا الأحمق الغيولا الذي يلازمها. وفي ساعة استدعائهما، هزّت نينون رأسها وقالت:

ـ لماذا تضايقتما من هذه العلاقة؟ من الآن فصاعداً أريد أن أتحرّر من كل رابطة. فقال دوبيجو:

ـ لكنك مجنونة، كيف ستعيشين؟

فهزّت كتفيها في لا مبالاة وقالت: الحب موجود وهذا كل ما يهمّني.

ولأول مرة تخلّت هذه المرأة المتّزنة في حياتها وتصريف أمورها عن العقل والمنطق. فلقد فقدت، بتخلّيها عن كل ارتباط لها بالمجتمع، كل واقعية في تفكيرها. وهكذا أثقلت كاهل حبيبها بالأعباء المادّية.

وذهب المموّلان إلى غير رجعة لأنهما في الحقيقة فشلا في تمنية نفسيهما بالحب الموعود الذي انتظراه سنين طويلة. وتعجّب فيلارسو وتساءل فيما إذا كانت نينون قد تخلّت حقاً عن كلّ علاقاتها بالآخرين من أجل عينيه؟ أيمكن هذا؟ أي نصر له هو هذا! لقد استطاع أن يأسر هذه المرأة الجميلة التي دوّخت الجميع ولم يسبق لأحد أن استطاع أن يستحوذ عليها كما استحوذ هو. وقالت له في سذاجة:

ـ لم يعد لديّ مورد للعيش. لا شيء أبداً في العالم سواك. وإذا لم تعطني ما يلزمني من أجل الأكل والمصاريف الباقية، فسأموت من الجوع والشقاء. هل هذا واضح؟

ـ يا ملاكي الغالي، لن تموتي جوعاً وشقاء. كوني مطمئنة.

ـ لم يعد لديّ حتى ما أسدّد به إيجار مسكني. فها أنا قد أصبحت بلا مأوى. أين ستسكنني؟

كان لذيذاً بالنسبة لها أن تلقي بأعباء حياتها على الرجل الذي تحب، وأن تجمع كل هومها في الحياة على هناء وسعادة هذا الذي تعبد... في الحقيقة أنها لم تشعر بما تشعر به الآن من لذّة جديدة لم تجرّبها أبداً طوال حياتها.

تمدّد فيلارسو إلى جانبها على أريكة طويلة وراح يفكر مرتبكاً وخائفاً من أن يطلعها على ما في نفسه من قلق. وقال:

ـ أنا لا أملك منزلاً في باريس، ولكنني بالطبع سأستأجر منزلاً أحبسك فيه وراء ثلاثة أبواب مقفلة، حتى لا يستطيع أحد أن يأخذك مني...

ـ يا حبيبي الغالي، هذا ما أريد أن أمنحك الحقّ في فعله بالضبط. لكن قل لي: نحن الآن في الصيف في أول حزيران.

ـ حزيران 1652، إذا شئت أن تدقّقي في الحساب.

ـ لماذا لا نذهب إلى الضاحية؟ فأنا لم أذهب إليها إلا مرة واحدة. إنني بحاجة لهواء الطلق، للحرية. إنني عطشى، إلى جانبك أنت، لكل ما لم أصنعه أو أره في حياتي.

عاشت نينون حتى ذلك الحين حياة فريدة. لم تترك من شرّها أحداً من الرجال الذين يقال عنهم خطرون، والذين لم يُدعوا أبداً إلى زيارة عائلية. لذلك لم تكن تغادر منزله في باريس أبداً. كانت كل الأسباب المشوّقة تحجزها ضمن إطار هذا المجتمع الخطر الذي راحت تتلاعب به في مهارة فائقة. ولحسن الحظّ كانت الأشجار تحفّ بمنزلها.

وأجابها العشيق قائلاً: الضاحية؟ حسناً جداً. فلتحيَ الضاحية! إنني، أنا، لا أصبح سعيداً إلا على صهوة الحصان والطريدة تعدو امام كلاب الصيد المفترسة! لكن إلى أية جهة ترانا سنذهب؟ كنت أعيش في جوار الملك، وعندما كانت فرص الخدمة تسمح لي بتمضية أوقات الفراغ بعيداً، كنت أذهب... لكن يا إلهي إلى أين كنت أذهب؟ زوجتي كانت تقطن في الصيف عند بعض الأصحاب...

ـ انا أفضّل أن نعيش في مكان هادىء وخال.

ـ لحسن الحظّ أن لي صديقاً سيعجبك، هو يحبّني ويحترمني، وانا أحبه كذلك وأحترمه واسمه شارل دي فاليكيرفيل، هل حدّثتك عنه من قبل؟

ـ لا يا غرامي، فنحن حتى الآن لم نتحدّث إلا عن أنفسنا.

ـ حسناً! فاليكيرفيل رجل قلّ أشباهه، وهو يسكن منزله في «ماريول» بالقرب من «ميلون». ولسوف يستقبلنا بمنتهى السرور.

ـ حدّثني عنه! في أي عمر هو؟

ـ فوق الخمسين. وحياته كانت حياة مغامرة دائمة. ولكنك سترين،

عندما تشاهدينه، رجلاً رقيقاً عذباً، هادئاً كأهدأ ما يكون الرجل الحكيم. وهو، على كل حال، فيلسوف وحكيم. وقد شاهد كثيراً من أمر الدنيا ولديه من ذكريات تجاربه معين لا ينضب. كان حزبياً: تآمر ضد الكردينال ريشيليو مع الكونت دي سواسون وجاستون دورليان. لكن المؤامرة فشلت فنفي إلى لندن حتى موت الشيطان ذي الثوب الأرجواني. وعندما رجع إلى فرنسا لم يتب عن التآمر فدخل في حزب الفروند وأسهم فيه. وها هو أخيراً يحاول النسيان ويعيش عيشة هدوء في ماريول...

ـ هو طموح بلا شك؟

ـ لا، أبداً. فهو لم يناضل أبداً من أجل هدف شخصي له ! فلقد كان تفكيره أرفع من ذلك. وقلبه، بالرغم من كل شيء، صاف وطيب. كان يناضل ويقاتل من أجل العدالة.... وقد سخر لاروشفوكو منه واعتبره زاهداً متصوّفاً...

ـ قد يكون زاهداً... ولكن ليس بمملّ؟ هل سيفهمنا في ما نعتقد؟

ـ لا أظن أن هنالك قلباً أرقّ وألطف إحساساً من قلبه.

وسوف ترين أنه سيحاول أن يقدم لنا كل ما يستطيعه من عواطف مخلصة. وأراهن على أنه سيفرح حتى الجنون بتعرّفه بك.

وبالفعل استقبل فاليكيرفيل العاشقين السعيدين في حماسة، وأخذ باكتشافه في نينون أرقّ امرأة عرفها، وأكثرهن تميّزاً في التفكير. أما هي فقد وجدت فيه رجلاً ظريفً وجذّاباً وغير عادي. وفي أول وجبة طعام تناولوها معاً في قصره قال لها:

ـ هل ترين أني لا أحسد أحداً في الدنيا بعد تعرّفي بك. لقد فكرت عدة مرات بأن ساعتي الأخيرة قد اقتربت. ولقد سخرت من نفسي وعجبت لرأسي كيف انه ما زال قاعداً فوق كتفيّ بعد الأحداث التي مرّت بي. وكل ذلك أشعرني بأني لا أزال حياً، وأسعدني. وأنا اليوم أكثر سعادة: فالشمس ساعة شروقها تسحرني وكذلك الغابة وهدوؤها.

ولاحظت نينون أثناء الطعام ان الصحون الموضوعة أمامها وامام فيلارسو كانت تزخر بالأطعمة الدسمة، بينما اكتفى المضيف بقليل من الخضار. فقال المضيف مبتسماً:

ـ العشاق يلزمهم غذاء جيد. وسأعد لكما مثل هذه الأطعمة حتى التخمة. وإن الحب لا يرى الماء الصافي فقد خبرته بالتجربة. ولقد مضى بالنسبة لي العهد الصالح للحب، لذا فالأطعمة الدسمة واللحوم لم يعد لها فائدة عندي. فأنا أعيش الآن في عصري الذهبي حيث الهدوء والراحة، والتخفّف من كل شيء.

هذه الحكمة، وهذا التعقّل والمنطق الصحيح، ذكّرت نينون بصديقها الذي ضحّت به بدون عذاب ضمير، ألا وهو سان أفريمون.

وسألته قائلة: وما هي مشاريعك هنا؟

ـ لا شيء. فأنا أتنزه، وأتأمل، وأتحدث أحياناً مع بعض الأصدقاء الذين يأتون لزيارتي. لكن هذه الأشياء على ما أعتقد تافهة بالنسبة لشابة مثلك!

ـ أبداً بالعكس، فأنا سأكون في غاية السرور إذ استمع إليك، لأني أتنبأ بأني سأتعلّم الكثير منك.

ومرّ صيف 1652 على نينون كأنه حلم ساحر. فكلّ ما تقع عليه عيناها في ذلك الريف يأخذ باللب: فحَوْل القصر العتيق تتحلّق الغابات والأحراج والسواقي التي تغنّي أنشودتها الدائمة، والتلال التي يمتد عليها ضياء الشمس الغاربة. وهكذا، وفي مثل هذا المحيط الرائع كانت تنساب الحياة الصافية الهادئة الجميلة.

وكان فيلارسو يُدعى دائماً إلى قصر فرساي للصيد برفقة الملك لويس الرابع عشر الذي كان معجباً بمهاراته في ملاحقة الطرائد. وفي أثناء غيابه، كانت نينون تتنزّه مع مضيفها، فتعلّمت المشي الطويل على الأقدام. ذلك أن شوارع باريس غير المرصوفة جيداً كانت تمنع هذه المرأة الأنيقة من السير حتى عشر خطوات على قدميها.

وكانت تلبس من أجل هذه الغاية فستاناً قروياً جميلاً وتنورة قصيرة وبسيطة وتنتعل حذاء عريضاً. وكانت تسخر من نفسها قائلة: الآن لي هيئة الحلّابة ولا ينقصني إلا سطل الحليب!

وعلّمها فاليكرفيل منفعة العمل من أجل الصحة ومن أجل صفاء الذهن. كما علّمها منفعة النزهات الطويلة في الغابات. وباتت تشعر بلذّة عميقة في هذه الحياة التي تعيشها. وصار يخيّل إليها أن حياتها الماضية بجميع ملاهيها وسهراتها وخدمها وضيوفها الأدباء والشعراء والفلاسفة والسادة الكبار، لا تمتّ بصلة إليها. بل أصبحت في نظرها حياة أخرى غريبة.

ماذا كانت قبل أن تتعرّف بفيلارسو ثم إلى فاليكرفيل؟ كانت امرأة مسكينة تظنّ نفسها سعيدة بينما هي الحقيقة تنتظر السعادة، وها هي الآن

تملكها على سعتها وجموحها وبساطتها. أما شهيّتها فقد انفتحت بقوّة لكل شيء فهي تشرب الحليب في كل مزرعة تحلّ بها، وتلتهم الزبدة الطازجة اللذيذة شاعرة بأن لها هنا طعماً جديداً لم تذقه من قبل، ولا تشبع أبداً من التهام الفواكه التي تقتطفها بنفسها من الشجر. وذات يوم قالت لمضيفها:

ـ لقد قضيت حياتي وأنا أحاول التفتيش عن المستحيل والنظريات الفكرية... ولم أدرِ أبداً كيف أفتش عن الحقيقة والواقع.

وكم كانت تلذّ لها مشاهدة غروب الشمس أو خروج الصيصان من البيض.

كانت تتذكّر أحياناً رياء بعض الكهنة الذين كانوا يزورونها وهم متّشحون بالفضيلة والقداسة... بينما كانت كل أحاديثهم تدور حول الفضائح والعلاقات الجنسية. وفكّرت في نفسها تقول: «كيف أمكنني الإستمرار في تلك الحياة البغيضة! لا بدّ أنني كنت سأختنق لو أنني تابعت تلك الحياة التافهة!»

وتصوّرت أن الزبدة الطازجة التي تلتهمها وثمرات الدرّاق والخوخ والمشمش تطهّر جسدها من الجراثيم التي كانت تعيش فيها بالمدينة، ومن الرذائل المتواصلة. وراح وزنها يزداد في اطّراد حتى أن ثيبها الضيّقة صارت تزعجها فتجبر نفسها على خلعها. قالت لمضيفها الحكيم:

ـ سأخرج من هنا ولي ردفان كردفي الفلاحات!

ـ في الحقيقة لم تكوني جميلة أبداً بهذا المقدار من قبل!

وفي كل الأيام كانت تجالس مضيفها المثقّف المحبوب. ولقد وصلت معه إلى درجة من الحكمة انصهرت فيها نظريات التشاؤم التي كانت تعتنقها مع النظرة الأبيكوريّة المعتدلة والفلسفة الزينونية في احتمال مشاقّ الحياة وآلامها.

هذه الحكمة كانت بعيدة عن نينون وعلى الأخص تحمّل اقتراب الموت كشيء لا مفرّ منه وكحدّ أخير للمتاعب والملذّات. فهي لم تتجاوز عامها الواحد والثلاثين إلا قليلاً، وفكرة الشيخوخة كانت ترعبها أعطاه هيبة وجمالاً هادئاً. لكنها كانت تتصوّر انها سائرة نحو الشيخوخة فتتساءل قائلة: أيمكن لهذا الجسد اللطيف أن يتبشّع؟ أيمكن أن تصبح عندئذٍ مرذولة من جميع المحبوبين؟ أيمكن ألّا تحب بعد ذلك؟

وسمع منها فاليكرفيل هذه التساؤلات ذات مرّة، فابتسم وحاول عبثاً أن يدخل في روعها فكرة عن الهدوء والطمأنينة والسكينة التي ستحسّها عندما تنتقل إلى طور آخر من أطوار العمر. كما حاول أن يقنعها بأن الشيخوخة في الواقع محتملة لدى من يتفهّمها بعقل سليم ويأخذ المور بحكمة. فهزّت نينون رأسها وقالت:

ـ أن لا يكون الإنسان محبوباً، وأن لا يكون مرغوباً فيه، ذلك هو الجحيم بالنسبة لنا.

كل الأوقات كانت مجالاً واسعاً للمناقشة. أما هو فقد كان يحاول جاهداً إدخال الحكمة إلى عقلها الشاب. وهذه الأفكار كانت تستثير نينون كثيراً. لكن وراء هذه المظاهر، كانت المطالعات والمناقشات تفعل فعلها في تحمّلها الإنتظار المضني للحبيب الغائب. كانت تفكّر فيه طيلة اليوم

وتتخيّله يحني رأسه بين ركبته على ظهر حصانه مخترقاً الغابة كالسهم.

كان يأتي أحياناً في أوائل الليل أو في منتصف النهارعندما يكون وقت الصيد قد انتهى. وكانت هي تستطيع معرفة وقع حوافر حصانه فما تكاد تسمعها حتى تصيح قائلة: «ها هو!» ويخفق قلبها من شدّة الفرح، فتهرول إلى الخارج لاستقباله وهي تشعر بالفخر والاعتزاز. لكن لماذا الفخر؟ أو لم يركع اكبر السادة على قدميها بالأمس؟ ولكن لا بدّ أن هذا الرجل الذي يمتطي الحصان يملك وراء ابتسامته الهادئة سحراً عجيباً ومغرياً يهدهد نفسها المضربة. كانت تعبده، لأن كل ما فيه يستثير حبّها وتمجيدها.

هذا الصياد الذي أخذ عن الوحوش الشيء الكثير من طباعها، والذي يتميّز بغريزة شهوانيّة عاقلة، كان يمنحها كل ما تتطلّبه من عاشق.

وإذ كانت تراقبه وهو ينزل عن صهوة الجواد ويقترب ليضع يده بيدها وفوق ثغره تلك الإبتسامة الفرحة، كانت عيناه تلمعان تحت حاجبيه المقوّسين الحنونين. ويا لهاتين اليدين اللتين كانتا تداعبان الجواد بلطف قبل أن يستلمه الخادم. يا لهاتين اليدين القوّيتين اللتين تصنعان منها ما تشاآن.

كانت تود لو أنها تركض إليه وتركع على قدميه وتضم ركبتيه على وجهها وتقول له: « ها أنت أخيراً، يا حبي! يا عزيزي! يا سيدي!» لكنها كانت تريد أن تحافظ على كبريائها، كبرياء المرأة التي أذلّت الكثيرين والتي كانوا يعتبرونها أكثر نساء العاصمة تفكيراً وظرفاً. لكن دماغ المرأة لأي شيء يستعمل عندما يضمها الرجل بين يديه الآسرتين؟ الأصح لو أنها تستخدم فقط براعتها في إسعاد حبيبها.

عندما كان يعود في الليالي المظلمة مهرولاً في طريق المنزل فوق جواده الأبيض المترقّط بالأسود، مستحثّاً الخطى نحو هذه المرأة التي تلهب له دمه، كانت تستيقظ فجأة وتنتظره وهي في قميص النوه على رأس السلّم، فيختبىء رأسه في ثنايا ثوبها المعطّر، وتلفّ هي ذراعيها حول رقبته في حنان حب. وعند ذاك يحملها فوق زنديه دون أن يشعر بثقلها وشفتاه على شفتيها، ويدخل بها إلى المخدع.

قبلة واحدة منها كانت كافية لأن تجعله يستردّ أنفاسه المتعبة ولأن يجعلها هي تنتشق نسمات الغابة المنعشة في تلذّذ. وكانت تردّد في أثناء ذلك بصوت مبحوح كلاماً عن حبها ورغبتها وسعادتها، وعن الدوار الذي يبعثه فيها هي التي كانت في السابق خرساء عند الحب. وكان قلبها الصغير، خلال ذلك، ينبض بشدة في أضلاعها كأنه يودّ أن يطير، وتتدافع الكلمات الحارّة على شفتيها حتى تتلعثم بها. لقدكان فيلارسو يسكرها حتى آخر قطرة من دمها.

وعلى شاكلة هذه الأيام العذبة، تتعاقب النهارات والليالي مجنونة مليئة بالرغبة الحارّة التي لا تنطفىء. حتى أن نينون كانت تتساءل في الصباح لماذا لم تمت تحت وطأة هذا الفرح الغامر الذي ينتابها.

لم يكن القلق على شيء يخطر ببال واحد منهما. فالشهور أجمل شهور حياتها على الإطلاق. ولم يحسبا أبداً حساب شيء غير هذا الحب الذي هما فيه. ولبثا وكأنهما لا ينتظرا مجيء الفصل الرديء في تلك البقعة من الأرض، ولا اغبرار السماء وبرودة الجو. ومع ذلك فقد كان من المستحيل قضاء فصل الشتاء عند هذا الصديق المضياف، لأنها المرة الأولى التي يقضيان فيها مثل هذه المدة خارج العاصمة. وقالت نينون:

أنا لا أريد العودة غلى باريس، فالأب اوليه ينتظرني هناك ليعود إلى تعدّيه وتجنّيه عليّ.

فاجاب فيلارسو قائلاً: لا تقلقي، سندبّر الأمر. فأنا اريد أن نعود إلى باريس وأن ننتقل غلى حيّ غير الحي الذي كنت تقيمين فيه، شرط أن تستمر علاقتنا على هذا الشكل بدون أن يزعجك أحد.

ـ سيجبروننني على دخول الدير.

ـ الشخص الذي يمسّ شعرة من رأسك سأقتله!

في تلك الحقبة كان إيجاد المنزل يتمّ بسهولة إذا وُجد المال. وعلى هذا استطاع فيلارسو أن يستأجر منزلاً في ريشيليو، لا يبعد كثيراً عن سان روش، وكان منزلاً جميلاً جداً في نظر نينون.

وهكذا استقرّت هناك دون أن تخبر احداً من أصدقائها، فهي لم تكن تشعر بالرغبة في أن تراهم ثانية. وكانت لا تخرج إلا قليلاً جداً، وإذا خرجت ففي حمّالتها المغطاة. وتابعت حياتها في انتظار عشيقها الجميل الذي كرّس لها كل اوقات فراغه خارج الخدمة المدنيّة في القصر.

ومع أنها كانت أشدّ إخلاصاً له ممّا كانت لسواه، فمنذ عودتها إلى باريس أخذت الغيرة تنهش قلب فيلارسو خوفاً عليها. فهناك ولا شكّ كثيرون من اللذين يتمنّون أن يلقوا عند قدمي نينون كل ما يملكون من مال وجاه وجمال. وكان ذلك لا يحتمل بالنسبة لعاشق غارق في الحب حتى أذنيه.

وباتت أيامه حافلة بالشك والإرتياب والظنّ الأثيم بتلك الحبيبة.

وبات يدخل فجأة إلى البيت في غير مواعيده ظنّاً منه بأنه سيجد احداً ما في أحضانها، فإذا البيت خال ونينون تحلم على سريرها أو تمسك بيدها كتاباً... وبالرغم من ذلك راح يعذّب نفسه بيده. وبما أنه لم يكن يستطيع أن يقضي النهار عند عشيقته، فقد جعل يفكر في طريقة يحرسها بها من العشاق دون أن تدري. وبالرغم من انه كان يؤلمها بقوارص كلامه حول هذا الموضوع، فإنها لم تغضب منه أبداً. وفيما هو في غمرة الحيرة والبحث عن الوسيلة التي يطمئنّ بها إلى خلاص نينون، التقى بالأب بواسروبير ذات يوم، فقال له:

ـ هل تعلم بأني لعبت لعبة فاشلة؟ لقد بنيت نزلاً في شارع ريشيليو، هو كبير جداً بالنسبة لي، وأنا افتّش عن شخص يستطيع أن يشتريه شرط أن يخلي لي شقة صغيرة منه أسكن فيها. فصاح فيلارسو قائلاً:

ـ وأين هو هذا النزل؟ وكيف هو؟

ـ تعال معي لتراه.

ورآه فوجده وكأنه نعمة من يد الله، لأن إحدى نوافذه تطلّ على بيت نينون، فهو لذلك صالح للمراقبة. وبدون مساومة تمّت الصفقة. وقال فيلارسو تملّقاً: انا سعيد جدا بأني سازورك من وقت لآخر، ذلك أني اعتبرك أفضل صديق لي. فاهتزّ الأب بوارسروبير طرباً ونشوة.

وبعد مضي ثمانية أيام على ذلك الحدث، اخبر فيلارسو حبيبته ـ وهو يهم بالخروج من عندها ـ بأنه يسكن على بعد خطوتين منها، فانشرحت جداً لهذا الخبر الذي يؤكّد من جديد حبه لها. لقد كان هواه يغذيه شعور جديد، أماهي فقد كانت تلتهب التهاباً بحبّه يوماً بعد يوم. ولم يكن هو

ليصدّق بأنها تخلّت عن أصدقائها السابقين جميعاً وأنها لا تعقد علاقات خاصّة مع هؤلاء أو مع بعضهم على الأقل. وهو يعلم جيداً أن أولئك الأصدقاء لا يزالون يرغبون فيها ويبحثون عنها في سبيل الإرتماء بين أحضانها من جديد. وهكذا أخذ يعيش ولا همّ له إلا أن يحتفظ لنفسه بكنزه الثمين الذي كان في ذات الوقت كنز الكثيرين. ولا بدّ أنهم سيزدادون تعلّقاً بها إذا هم علموا بأنها أصبحت محرّمة عليهم. وكانت نينون تقضي أغلب أوقاتها وحيدة دون أن تشعر بالتعب والملل من هذا الحب الذي تراه في تجدّد دائم. كان كل غياب لحبيبها عنها يجعلها ضائعة. وكل عودة له تنعشها من جديد. ومع ذلك فالحبيب الغالي في تشتّت بال دائم، فهو يمنعها الخروج من البيت ومن زيارة أصدقائها أو استقبالهم.

وذات ليلة عاد فيلارسو إلى باريس متأخّراً، فتوجّه أولاً إلى غرفته في المنزل يتحقّق من أن نينون وحدها في بيتها، ومن أحداً لا يزورها. ففي تلك الساعة عليها أن تكون نائمة، أو على الأقل راقدة في فراشها. يا للعنة! هنلك شمعة لا تزال مضاءة في غرفتها. لماذا؟ يا للسماء! هل هي مريضة؟

واستقدم إليه خادماً وأرسله إلى بيت نينون ليتأكّد من أنها في صحة جيّدة. وكان جوابها له: «بالطبع، أنا لا أشكو شيئاً. ولكن دمّ فيلارسو لم يهدأ، فالشمعة لم تزل مضاءة! يا لها من امرأة و لعينة! إنها تكتب رسالة إلى عشيق جديد... هذا واضح لا ريب فيه! وماذا يمكنها أن تفعل غير ذلك في ساعة كهذه؟ لا بأس، سيذهب إليه بنفسه ليتحقّق من خيانتها.

وعند الردهة، وهو يتناول قبعته بسرعة، أمسك بإبريق الشاي النحاسي وبضربة عنيفة أدخله ي رأسه، فوخزه الألم بعنف، فصاح وحاول أن ينزعه فلم يفلح، بل زاده الجرح ألماً. فراح يصرخ في خدمه قائلاً: يا بوجينيون،

يا أنطوان، يا ألفونس. تعالوا إليّ يا ملاعين! هل ستتركوني أموت هنا وحدي؟

فاستيقظ الخدم على الضجة وهرول اثنان منهما مرعوبين.

ـ فليعذرنا سيدي المركيز، لقد كنّا نائمين.

ـ نائمين؟ هذا وقت طيب للنوم إذا غذ يكاد سيّدكما يموت من الألم!

فراح الخادمان يراقبان المركيز مذهولين لهذه الهيئة الغريبة وتساءلا قائلين: هل أصبح سيدنا مجنوناً؟ وسأله بورجينيون في خوف:

ـ لكن لماذا سيدي المركيز يضع إبريقاً على رأسه؟

ـ قبل أن تسألني، أسرع وساعدني.

فراح الإثنان يتعاونان في سبيل نزع هذه القبعة العجيبة عن رأسه بعد أن تركت على جبينه آثر الخطوط واضحة حمراء. ولم يهدأ غضبه بعد هذا الحادث الأحمق وهذه الجروح المؤلمة، بل ظلّ يغلي من شدّة الغضب إذ فكّر بأن نينون قد تكون انتهت من كتابة رسالتها... أو أنها قد تنتهي قبل وصوله فتفوته فرصة القبض عليها بالجرم المشهود...

وبعد لحظات دخل فيلارسو هائجاً إلى منزل نينون التي قلقت جداً لرؤية الدم على جبينه، وجعل يزعق ويتحدّث في موضوع الخصام الذي أتى من أجله و قال:

ـ لمن تكتبين الآن، بينما أنا أتعذّب واترقّبك بحماقة وأضيع وقتي من أجلك؟ من هو العشيق الجديد الذي اجتذبك لدرجة تمنعك من النوم؟

فجرحت نينون جداً من هذا الكلام، هي التي أخلصت له إخلاصاً لا

مثيل له. وقالت: هل جننت لتأتي إلي في مثل هذه الساعة ولتتكلّم مثل هذا الكلام؟

ـ لماذا لم تنامي بعد؟

ـ لأنني لا أستطيع النوم! هل تريد مني أن أتلقّى أوامرك في ساعات نومي، كأنني أعيش في دير؟

ـ ولكن ماذا تعمبين في غرفتك؟ لا تنكري... كنت تكتبين... لمن؟

فاحتدّت نينون وقالت في عنف: ليس من اللائق والشريف أن تشك بي! لقد أثقلتني بغيرتك المضحكة التي لا أستحقّها، لأني لم أفكر في خيانتك!

ـ هكذا إذن، أنت تنوين أن تفعلي ذلك بعد الآن؟!

ـ فكر كما تشاء. لقد ارتكبت حماقة في حبك. لكنني لن أستطيع أن أتحمّل كثيراً هذه الشكوك المزعجة. أنا أؤكّد لك ما قلته مراراً، وهو أنني عندما أتركك لا أخدعك ولا أخونك أبداً.

ـ إذن قلتِ لي ذلك: «مراراً عديدة؟» هذا تذكار حلو لي! كم من العشاق تركتِ حتى الآن؟ لا بدّ أن الرقم هائل...

ـ هذا لا يعنيك! فأنا أترك الرجال عندما أحسّ بمضايقتهم وستكون في عدادهم إذا واصلت هذه اللهجة!

ـ يا جاحدة، يا عاطلة، هذا الذي تفتشين عنه. تريدين أن تتركيني لترتمي بين ذراعي آخر اخترته لنفسك من بعدي وتبعثين له بالرسائل العذبة!

وبلغت إذ ذاك آخر درجات الاحتمال والصبر، فقالت له:

ـ اخرج من هنا، أنا أمنعك من البقاء عندي دقيقة واحدة، فأنت تثير اشمئزازي. اخرج أو أُخرجك بالقوّة!

وأمسكت بحبل الجرس لمناداة الخدم. فقال فيلارسو:

ـ حسناً، أنت تطردينني. سأخرج! وإني أفهم من ذلك أنك لم تعودي تحبينني وأن كل شيء انتهى بيننا.

ـ نحن على اتفاق إذن، وهذا ما أنتظره. الوداع!

فهرب في يأس وحشيّ، إن نينون لم تعد تحبّه... كل شيء انتهى... لم يعد هناك شيء يستحقّ الاهتمام في العالم!

ونام، ثم ما لبث أن راح يهذي. وأخذته نوبة من الحمى العنيفة التي تنبئ فجأة أن المريض على أبواب الموت.

وتحت تأثير الهذيان كان يتنهّد ويشكو من رأسه بمرارة. وفي الصباح استدعى خدّامه له طبيباً. فاعتبر الطبيب أن حالته بسيطة. لكن المريض بقي كما هو بالرغم من العلاج.

وعلمت نينون بعد ساعات قليلة بحالة حبيبها الغالي فيلارسو، وكانت تعرف جيداً بأنها السبب فيما أصابه. كان يتألم من ألم ألمّ به ومن الغيرة. يا للحبيب، كيف يمكن التخفيف عنه؟ إن أحداً في الدنيا لا يهمها بعده! يا للسماء! إذا مات بغلطتها... وأحسّت بجنون عاطفتها اتي توقّدت بسرعة. وبلا وعي اخذت المقص وقطعت جدائلها وخصلات شعرها المرتمية على جبينها والتي كانت تفتخر بها وتزهو ووضعتها جميعها داخل علبة أرسلتها إلى هذا الحبيب الذي لا يزال يشكّ بإخلاصها وحبها له.

واستلم فيلارسو العلبة، وإذ فتحها لبث مدهوشاً كالمأخوذ ثم أمسك

بالشعر الجميل المعطّر بين يديه وراح يداعبه ويغطّي به وجهه! إذن فهي مخلصة وأمينة ولا تزال تحبّه، وهذا أكبر برهان على حبّها وإخلاصها. لقد ضحّت بأجمل شيء لديها تستطيع التضحية به. وجن، وأخذ يلوم نفسه على تلك الحماقات التي صنعها، آه! يا للمرأة الفريدة النادرة. يا للحبيبة المعبودة!

كان لا يزال ضعيفاً من جرّاء الصدمة. ولكنه تحامل على نفسه وكتب لها هذه القصاصة، قال:

«يا صديقتي المقدّسة، أشكرك. لقد أنقذتني. لقد شفيتني. هل ستغفرين لي حماقتي وغيرتي التي تثيرك؟ وما فعلت ذلك إلا لأنني أحبك كما لم يحب أحدٌ أحداً من قبل!»

تلقّت نينون الرسالة فشعرت بقلبها يخفق من الفرح. لقد شفي، شفي بسرعة! وتناولت قبعتها. فسألتها إحدى الخادمات تقول: هل ستخرج السيدة؟ أأستدعي الحمّالين؟

وكانت إذ ذاك تضحك من الفرح وتقفز. وأجابت قائلة: نعم يا صغيرتي، السيدة ستخرج.. لكن لا بدون حمّالة... ولا تنزعجي من أجلي.

وفي أقل من خمس دقائق كانت بجوار السرير الذي أخذت الدهشة والفرح صاحبه فبات لا يدري ما يصنع. لقد شعر بجسمه بين يدي حبيبته في وضع لذيذ. وبشوق وجنون أخذت هي تخلع ثيابها وتبعثرها في أنحاء الغرفة ثم انزلقت في السرير... وبقيت هناك ثمانية أيام وثماني ليالي!

كان هذا الأسبوع بالنسبة لفيلارسو أسبوعاً مقدّساً.

أوَيمكنه بعد هذا الحب الإلهي الذي غمره بالسعادة أن يتحمّل تقرّب زوجته منه أثناء مرضه. هذه الزوجة المهجورة منذ زمن والمهجورة أبداً ودائماً. لقد يئست منذ سنين طويلة من إبعاده عن خيانتها. وكيف يمكنه أن يبتعد عن الخيانة والنساء يرتمين عليه. ومع هذا فقد كانت تعتقد بأن تلك المغامرات عابرة، لأنه كان يعود إلى المنزل من وقت لآخر. أما منذ علاقته بنينون، فإنها لم تعد تلمح وجهه بتاتاً. وهذا خير لها، لأن عودته القصيرة إلى المنزل بين الفينة والأخرى لم تكن إلا مشاحنات وخصاماً متواصلاً ودموعاً وآهات.

في أحد الأيام وجد نفسه صدفة في قصره. فاغتنم مربي أولاده الفرصة ليخبره مدى تقدّم هؤلاء في اللغة اللاتينية والتاريخ القديم. فسأل أحدهم سؤالاً باللاتينية أجابه عنه بسرعة، قال: نينون!

فانتفضت مدام دي فيلارسو، التي لم تكن تحسن اللاتينية ولا التاريخ. انتفضت غضباً لدى سماعها هذا الاسم الملعون الذي يلاحقها حتى في بيتها ذاته! وما الذي دفع هذا المربّي الملعون إلى تعليم أولادها أشياء كهذه؟ وصاحت به تقول: أُحذّرك، لأول وآخر مرة، من لفظ هذا الاسم في بيتي...

فاندهش المربّي المسكين الذي لم يكن يفهم شيئاً عن الموضوع وعن كل ما يتعلّق بالزوج أو بالزوجة، وفغر فاه. بينما انفجر فيلارسو بالضحك وغادر الغرفة تاركاً المربّي وزوجته يتناقشان حول كلمة «نينون» وما تعنيه باللاتينية.

ومنذ ذلك الوقت راح الزوج يردّد هذه الحادثة في كل مكان يزوره متحدّثاً عن غباوة زوجته.

وبعد أيام حملت له نينون خبراً جديداً: إنها حامل! وكانت فرحة بهذا الخبر جداً. لكنها راحت تفكر في حماقتها من جديد، وتذكّرت موقف سان إتيان عشيقها الأول وكيف استقبل خبر حملها بالعداء والهرب منها إلى الأبد، فقلقت.

لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث هذه المرة. فمذ سمع فيلارسو هذا الخبر صاح فرحاً وضمّ نينون بقوة إلى صدره. فقالت لا بدّ أن يكون غلاماً، وأريده أن يشبهك.

ـ الحب هو الذي صنعه، والحب هو الذي سيحميه.

والوليد الذي جاء العالم في سنة 1653، أصبح فيما بعد لويس فراسوا دي مورناي، الذي لم يعترف به والده إلا بعد مضي سبعة وثلاثين عاماً. ولكنه كان مهتماً به دائماً خلال حياته، فأمّن له تعليمه وتثقيفه ومعيشته وهيّأه ليتسلّم رتبة قبطان. وبالطبع لم تحتفظ نينون بالطفل إلى جانبها، لأن ذلك لا يتّفق مع حياتها الشخصيّة وع تقاليد عصرها. لكنها أحبت هذا الطفل على طريقتها الخاصة. فكانت شديدة الاهتمام بتأمين حياته المادّية والعناية بصحته. ولقد كانت نينون أماً مخلصة ومحبّة بدون عرض عواطفها والأشياء العاديّة الأخرى التي تتظاهر بها الأمهات عادة.

هذه الولادة عزّزت كثيراً من روابط المحبّة بين العاشقين اللذين كان انتظارهما وترقّبهما رائعاً وكاملاً. وقرّرا أن يعيشا هذه السنة فصلاً جديداً يكون أجمل بكثير من فصل الصيف الماضي، وبما أن فاليكيرفيل كان متغيّباً عن منزله ذلك الوقت عند جماعة من أصحابه، فقد قرّر فيلارسو أن يكون جريئاً فيصطحب نينون معه إلى قصره العائلي.

وقلّة الذوق هذه صدكت كثيراً من معاصريه بالرغم من أن العصر كان عصر إباحيّة ولا مبالاة بالتقاليد.

وكانت نينون تمتلك صفات كثيرة تميّزها عن غيرها من النساء. وكان الزواج وواجباته بالنسبة لها شيئاً لا يحتمل. ولم ترفض أبداً النوم مع واحد تدري أن إلى جواره زوجة تنتظر عودته إليها بالدموع. إذن: «عليها أن تحبّه أكثر ليمكنها أن تحتفظ به»

وفكّرت جيّداً «بأن القبلة التي يمنحها إلى واحدة لا يمكنه أن يمنحها هي نفسها إلى أخرى.» وقبلت بفرح أن تذهب معه إلى قصر فيلارسو. وكان هذا القصر من القرن الخامس عشر، يرتفع في منخفض تكثر فيه التلال المحدّبة، وفيه غدير هادىء يبسط ماءه على أقدام هذه التلال. أمّا البساتين التي حوله فقد كانت نظيفة وجميلة تخترقها قنوات الماء، ومزيّنة بأحواض وحدائق مزهوّة. وخلف هذه البساتين كانت ترتفع الأشجار على منحدر تلّة، جلاً في إثر جل، بالقرب من الينابيع الصغيرة المنسابة في عذوبة، ممّا سحر نينون وفتنها.

في هذه الأثناء عاود فيلارسو ونينون حياتهما الحالمة الماضية بكثير من النشوة والحب.

تركّزن نينون في أحد الأبراج ـ الذي لا يزال يحتفظ باسمها ـ وزارت البرج الآخر المقابل برعشة ورهبة، وكان يسمّى برج المحكوم عليهم بالإعدام، حيث كان الأسياد القدماء يحبسون المجرمين أو الخصوم حتى الموت. وكانت المياه تسير تحت البرج بخرير كأنه الشكوى الدائمة الرتيبة التي يخيّل للمرء بأنها نداء سجين يريد الحرية.

أما برجها المرح الذي اختارته لسكانها فقد كان مزيّناً بسقف مروّس، ومبلّطاً بقطع من الحجر الأبيض، ومحاطاً بالقناطر الكثيرة التي تربطها جميعاً قبّة رئيسيّة كبيرة تسكنها العائلة. وفيلارسو المغرم بالوحدة اختار منذ القديم هذا البرج الصغير مأوىً له أوقات المطالعات الأدبيّة والتصوير، لأنه مغرم بهذين الفنّين: الأدب والتصوير، وهو في الحالتين ذو ذوق فنيّ لطيف.

ومخدع نينون هذا البرج يشبه العش: سلّم ضيّق يقود إلى ممرّ خارجي ينفتح على غرفة أنيقة ذات جدران مزيّنة بلوحات تمثّل سيدات في أثواب الحفلات الرسميّة، وإلى جانب هذه الغرفة كانت واحدة أخرى صغيرة على شكل قوس تضيئها نافذة ذات زخرفة مذهلة على الجدران والسقف، عدا عن مداليات العائلة المذهّبة وقطع زخرفيّة أسطوريّة قديمة. وقالت نينون:

ـ انظر إلى هذا الفن التطبيقي العملي الذي بإمكانه أن يزيل هموم المرء وكوابيسه السوداء!

وضحكت هي وعشيقها. لم يكن عندهما كلام ليتحدّثا به. وكان الخطر الوحيد الممكن وقوعه، مدام فيلارسو التي قد تفاجئهما في ساعة غضب، فتشتعل العاصفة.

لكن الزوجة المهجورة تحتقر الفضائح، والعشيقة الساكنة في البيت العائلي هي الخطيئة بعينها... لذلك احتملت هذه المعصية بدون أن تقول كلمة واحد، متظاهرة بأنها تجهل الأمر. فراح الحبيبان يقضيان أيامهما الرائعة في هذه البلاد الجميلة بدون أن يعكّر صفوهما أحد. كانا يتنزّهان

طيلة الأمسيات في الممرّات المزهرة، وتحت الخمائل الناضرة والأكواخ الصغيرة البريّة. وكان فيلارسو يريد أن يحتفظ لها في كل مكان هنا... بذكرى جميلة!

والسحر في هذه البقعة مصدره تلك الينابيع المتفجّرة في كل مكان، صافية متلألئة شفّافة وباردة. وكانت نينون حين مرورها هناك بتلك الينابيع تغطّس قدميها لتبترد، فالطقس كان حارّاً.. وذات يوم قال لها فيلارسو ضاحكاً: هل تعلمين أنك بهذه الحركة ستتمتّعين بشباب دائم؟ لأن هذه الينابيع، كما يقال، تمنع الذي يغطس فيها من أن يشيخ.

فتنهّدت نينون وقالت: آه، كم تطمئنني بهذا الحديث!

ـ وهل أنت بحاجة إلى من يؤكّد لك ذلك؟ أنت أجمل الجميلات!

فابتسمت دون أن يشيع المرح في ابتسامتها وقالت: آه من هذا الوقت الذي يسرع بالهرب ويأخذ معه جميع هذه الأيام الحلوة التي لن تعود!

وفي أحد الأيام الحارّة نزعت عنها ثيابها كلّها وغطست في ماء الحوض البارد. وكان هو يراقبها من بعيد ويتأمّل هذه المرأة الساحرة التي لا تخبو جذوة سحرها وجاذبيّتها. وكان مرآها وهي عارية في وضح الشمس يثير الجماد. وإذ خرجت من الماء هرع إليها ونشف لها جسدها بالقبل. وبالرغم منه رأى نفسه يجذبها نحو زاوية ظليلة. فقالت نينون في إعجاب:

ـ إن أحداً من الناس لن يكون، وإن أحداً لم يكن أبداً سعيداً كما نحن سعيدان الآن. أنا أظن يا لويس بأننا وصلنا إلى قمة حبنا ونشوة عواطفنا. انا لم أعرف بحياتي أبداً أوقاتاً أجمل من هذه. فقال:

ـ ولا أنا أيضاً!

لم يكن فيلارسو ونينون يستطيعان التخلّص من فتنة هذه الحياة المستقلّة عن جميع الكائنات الأخرى، وكأنهما العاشقان الوحيدان في العالم، لا يقلقهما شيء ممّا هو خارج نفسيهما: لا هموم المال ولا هموم التلّق والتكلّف نحو الناس ولا أي شيء آخر.

لقد حقّقت مع فيلارسو حلم جميع العشاق الذين تفسد عليهم معيشتهم تلك الأمور السخيفة. ووظيفة نينون هنا أن تكون جميلة وأن تحب من أجل الحب. ولهذا رفضت عدّة أسابيع متوالية أن تسمح لحبيبها بالرجوع إلى باريس وقد دعي إلى القصر الملكي لمهمة تتعلّق بالمال.. المال يمكنه أن ينتزع منها هذا الحلم المثالي! لا.

ولكن أيلول أقبل، وهاهي مجبرة على الرجوع إلى باريس وترك هذه الجنة التي تحسد عليها.

وفي الحقيقة أن هذه الأوقات الطويلة التي أمضتها مع فيلارسو جنباً إلى جنب بدون فراق، استنفدت كل طاقات عاطفتها وغرامها. بعكس ذلك الصيف الذي امضته عند فاليكرفيل، حيث كان فراق حبيبها يزيد في استمرار الحب في نفسها، لا لأن حبيبها ليس مثقّفاً، ولكن عناده في بعض الأفكار السخيفة كان يضجرها ويتعبها بسرعة.

كانت نينون ذات غريزة حساسة، ومتقلّبة. ومن كان إحساسه متبدّلاً دائماً لا يمكنه الاستمرار على وتيرة واحدة إلى الأبد.

أما فيلارسو فقد كان يظهر في هذه الأثناء أكثر ثقة في نفسه وأشدّ فخاراً لامتلاكه هذه المرأة أطول مدّة ممكنة من حياتها، وهي المرأة المتبدّلة التي لا تشفق ولا ترحم في شؤون الحب.

وكانت زيارتها أحياناً لبعض الجيران تخفّف شيئاً من مللها. ولكن سرعان ما تعود إلى الضجر لأن هؤلاء الرجال البسطاء أخذوا ينظرون إلى حياتها بشيء من عدم الاهتمام، وأحياناً بسخرية.

وأخذت تفكّر، تحت عبء هذه الحياة الثقيلة التي تعيشها، بأصدقائها القدامى أمثال سان أفريمون الحكيم، والأب بواسروبير الذكي وغيره وغيره ممّن كانوا يتنافسون في كسب عطفها ورضاها. عليها أن تعود إلى باريس التي تنتظرها وتناديها. ولكن اية تعاسة ستغمرها عندما تترك هذه البقعة الساحرة ذات الأشجار والينابيع حيث استنفدها الحب حتى آخر قطرة من دمها. أية رحلة كاملة الحظّ تنتهي في حياتها!

صحيح أن هناك أشاء أخرى غير ذلك، ولكنها لن تستطيع أن تمارس حياة الجد وحدها، أو حياة اللهو وحدها، إلى الأبد. بل لا بدّ أن يكون لكل منهما نصيب في حياتها. وانفرادها بأحد هذين المسلكين يضجرها ويبعث في نفسها السأم القاتل، مع أنها كانت تكره في نفسها عدم الاستقرار هذا.

وأخيراً تخلّصت من حياتها السابقة ومن تردّدها المضني ودخلت إلى باريس عام 1654، واستقرّت في شارع ريشيليو ثم عيّنت محامياً لها لينهي قضيّة المولود من فيلارسو بطريقة قانونية. وبعد ذلك انصرفت إلى حياتها السابقة ضمن حلقة العقول المفكّرة التي تركتها زمناً.

وكان أوائل المتحلّقين حولها هم على التوالي: شقيق حبيبها واسمه رينيه دي مورناي دي فيلارسو، ثم الأب كانتان بوفيه، فالأب بواسروبير، وفاليكرفيل. وكانت المناقشات تدور دوماً حول حقيقة الحياة وجوهرها ومعناها والطريقة الفضلى التي يمكننا أن نعيشها فيها.

أما الشخص الوحيد الذي استطابت نينون الجلوس إليه فقد كان فاليكرفيل الذي يكره الحماقات والسخافات البهلوانيّة. كان فايكرفيل في نظرها عاقلاً ومفكّراً يتجاوز كل المعتقدات ليحتفظ لنفسه بفلسفة خاصة كانت تدهشها. وكانت هي غير مؤمنة منذ زمن طويل، لأنها في الحقيقة لم تكن تفتش إلا عن الطرق التي تبعدها عن الإيمان.. لذلك طاب لها أن تجالس هذا الشخص الذي يخاطبها عن الإيمان في نظرة بعيدة كل البعد عن مفاهيم الرهبان والكنيسة، ويصحّح لها الطريق التي تسير عليها.

أما فيلارسو فقد كان لا يزال يحمل لها من الحب والرغبة الشيء الكثير ولكنه إذ وجد حبيبته في صحبة هؤلاء الرجال، لم يعد باستطاعته أن يتفيّأ ظلّها كالسابق. وكان، لتفاهته، يجد هذه المناقشات التي تتحمّس لها نينون من السخافة بحيث لا تستحق الاهتمام. ومع ذلك فقد حاول أن يندمج في هؤلاء المفكّرين، ولكنه لم يفلح لعجزه وسطحية تفكيره، فقال لها:

ـ ما الذي تحبينه في هؤلاء المتحدّثين البارعين؟ لقد أمضيت السهرة دون أن تلتفتي نحوي وكأنني لست هنا! وهذا مما يدخل السرور على قلب الحبيب ويؤنسه، أليس كذلك؟ فقالت:

ـ لقد أعطاني الجواب المناسب واحد من عشّاقي، وهو أن المرأة التي تشبهني لا تحسّ مع هؤلاء بالعزلة.

ـ أنت تعنين إذن أنني عاجز عن منافستهم في التفكير؟

ـ ابداً. ولكن إذا أحببت أن تتألّم فتألّم، غير أني أرجو أن تدعني أفتش عن السعادة على طريقتي الخاصّة. أنا سعيدة بذلك.

ـ ألم أجعلك أنا سعيدة؟

ـ الجسد أخذ حقّه حتى الكفاية. وعلى التفكير أن يأخذ دوره أيضاً!

وتقلّصت المناقشة على هذه الصورة الموجزة. وقالت نينون في نفسها: «إنه يضجرني». لقد كانت تريد، بعد هذا الجمود الطويل، أن تنفض كالعصفور الأسير جناحيها من جديد. وفكّر هو ثم قال في نفسه: «آه! إني أشعر هكذا بالحرية من جديد! لم يعد عليّ أن أستنفد جهدي لأحافظ عليها، فباستطاعتي أن أفتش الآن عن شيء آخر!»

وعلمت نينون بعد حين أنهم يردّدون شائعات تنال منها، مثل هذه الكلمة الخبيثة التي نطقت بها امرأة حسود: « لقد شاخت نينون وأصبحت عاقلة ورزينة!»

فصدمتها الكلمة بقوّة! آه، لو أن سان أفريمون كان هنا! إنها لم تسمه شيئاً من أخباره منذ زمن طويل! لقد انشغل في خدماته العسكريّة في السابق قبل رحيلها إلى ليون. ثم إذ انتهت حرب الفروند سافر إلى غويان، وانقطعت بعد ذلك علاقتهما.

وبينما هي في أحلامها تلك الخائبة وصلتها رسالة شعرية من الصديق الغائب وهو في طريقه إلى باريس يتساءل فيها عن علاقتها بالرجل الذي أسرها أكثر من ثلاث سنوات، وهل لا تزال تريد الهرب، ويحذرها بعد ذلك من عقد مثل هذه الصلات التي تكبّل المرأة بالقيود وتخرجها من العالم إلى مكان آخر منعزل تضيّع به أجمل سنيّ حياتها.

لقد وصلت تلك الأبيات العشرة في وقتها المناسب. ولو قرأتها قبل أشهر معدودة لما اهتمّت لها ولما أعارتها اكثر من هزّة من كتفيها

الجميلتين. أما الآن فهي تقرأها وتعيد قراءتها مبتسمة تغمغم قائلة: هو يعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي. إنه دائماً على حق! ودعته إلى ملاقاتها حال وصوله إلى العاصمة. فهرول إلى بيتها مشتاقاً وشرح لها بأن الشهوة الجسديّة يجب ألا تقود الحياة وتتصرّف بها كما تشاء، وتبغدها بذلك عن أهم ما في الفلسفة الأبيكوريّة من ميل للتشاؤم الذي يجب أن يكون القاعدة الرئيسية في الحياة.

لو قال لها ذلك وقت اندفاعها في رغبتها، لأجابت قائلة: «اتركني سعيدة على طريقتي الخاصة!»

وشيئاً فشيئاً رجع أصدقاؤها القدامى يطرقون بابها من جديد. وفي لذة لا مبالية عادت إلى غنجها ودلالها الأولين، وإلى كتابة الرسائل الأدبية الأنيقة.

وهذ المرة كانت أجرأ في مسلكها من أية مرة سبقت. وأكثر رجال الكنيسة انصرافاً للملذّات كانوا إلى جانبها. وتألفت في صالونها حلقة جديدة من الزنادقة المحترفين راحت تكبر بسرعة مما لفت أنظار جمعية ال» سان ساكرمان» التي عادت إلى التلصّص والتجسّس على حركات هذه المرأة التي كانوا يعتقدون أنها خطرة.

أما فيلارسو فكان غاضباً لدرجة الجنون. صحيح أنه تعب من علاقته بها. لكن هذه الضجة الجديدة وأسطورة المغامرات الجنونية التي عادت إليها نينون، صدمتاه بقوّة. ألم يؤثّر عليها في ذاك الوقت الطويل الذي قضاه بجانبها؟ ألم يكن أكثر من رجل عابر في حياتها؟ هل احتجزته كل تلك المدّة للاشيء؟!

وها هو ميوسنس، كاشف المخادع الكبير الذي يدخل على النساء كما يدخل الثور إلى الحلبة، فقد ظهر من جديد في صالونها بنيّة إعادة الوصال مع هذه المرأة المشهورة، فذبّلت له عيناها ومنحته يدها لتقبيلها، وخيّل لفيلارسو أنها تضطرب أمامه دليل التقرّب منه، ممّا أثار جنونه فصاح بقوّة يقول:

ـ أتهزئين بي؟ أي دور تريدين أن تلعبيه؟ العشيق المرذول صفة لا تليق بي.

ـ وهل أنت متأكّد من أنك لا تزال عشيقي؟

ـ يخيّل لي ذلك.

ـ أمّا أنا فأشكّ في ذلك. على كل، ما الذي تريده مني؟

ـ أن تغلقي بابك بوجه هذا الثور الذي يسمى ميوسنس والذي لا يفكّر إلا بتذليل النساء.

ـ وهل تريد شيئاً آخر؟

ـ وهل تريننني أتجاوز الحدود؟ اظن أن باستطاعتي أن أجعلك في حالة أكثر لياقة. هل تريدين أن تضعي ميوسنس على الباب؟

ـ ولكن لأي سبب؟ هل لأنه يشتهيني؟

ـ لأنه لا يعجبني!

ـ ولكن يا عزيزي، قلت لك سابقاً أكثر من مرّة، بأنني أفعل كل ما يسرّني أنا بصرف النظر عن الآخرين.

ـ هذا يعني أنك لم تعودي تحبينني؟

ـ أنا خائفة من أنني قد أكون لا أحبك... ولكن الضائع، كما تعلم، لا يسترجع أبداً.

ـ إذن، هذا إعلان بالطرد؟

ـ لا تكن عنيداً يا لويس. لقد كنا سعيدين جداً في الماضي حتى أننا لا يمكننا أن نصبح عدوّين. فلنكن احسن صديقين في العالم.

ـ وداعاً، إذن! وماذا تريدين أن أصنع بصداقتك هذه؟

وبعد مضيّ عدة أسابيع على هذه الحادثة التي تخلّص فيها من ارتباكه تجاه هذه المرأة التي كان يظنّ أنه لا يزال عشيقها الوحيد، عاد إلى زيارة نينون فاستقبلته كأن لم يكن هناك شيء بينهما قد حدث، فابنهما وضع بينهما علاقة لن يفكّرا ابداً في قطعها.

نينون في الدير

*

هذه الشلة من الزنادقة الماجنين التي تألقت حولها بعد رجوعها إلى باريس كانت تكبر وتتضخّم باستمرار، وتزداد بذلك شهرتها الفريدة في نوعها.

وبالطبع لم يكن الناس يستطيعون أن يتقبّلوا هذه الأشياء كأمر واقع و لذلك أخذوا يضعون العراقيل في وجهها. ولبث أعضاء جمعية «سان ساكرمان» المتعصّبة، يعملون جادّين في سبيل وضع حدّ لهذه الجماعة التي اعتقدوا كل الإعتقاد بأنها ستحطّم مهابة الدين عند عامة الناس. وأصبح صالون نينون في الأيام الأخيرة يعجّ بالرواد عجيجاً متّصلاً. وأصبح هؤلاء قادرين على زرع الشرور في المدينة الماجنة. وكانت تريد أن تقنع نفسها بأنها دائماً على حقّ في جميع تصرّفاتها الغريبة. وكانت تحثّ الجميع على البقاء حولها لتقضي على شعورها القاتل بالوحدة. وها هم يتحدّثون ويشربون ويأكلون. والناس في الشارع يتفكّهون في الأحاديث حول ما يتلقّونه أو يسمعونه أو يختلقونه من أخبار عن سكان المنزل الفخم، وكل وحد منهم يودّ لو يستطيع أن يكذب أكثر ممّا يكذب سواه بغضاً وحسداً.

وهؤلاء الغيورون المتعصّبون للدين والأخلاق، لم يذهبوا هذه المرّة إلى جان النمساوية التي شعروا بضعفها تجاه هذه المسألة المهمّة، بل اتصلوا أولا بسيّدات ذوات نفوذ مثل مدام دي سينسي، وزوجة المارشال دي غرامون، ومدام دي فاندوم التي تسلّي بحماقتها البلاط بأجمعه، على حدّ قول تالمان.

هؤلاء السيدات الثلاث أخذن المسألة على عاتقهنّ بجدّية خالصة، وحاولن وضع حد لهذه المخزيات المشينة التي تستقرّ على بعد خطوات من اللوفر، فأطلعن الملكة الأم على القضيّة بصورة مبالغ فيها فأدخلوا في ذهنها أن هذه المرأة الفاسقة ستفسد الشبيبة وتعطي الناس المثل الرديء، وهي مع ذلك تفتخر بالأقاويل التي تدور حولها.

وتحت التأثير والضغط قرّرت جان النمساويّة أن تعاقب هذه «الفاسقة» التي تمتدح نفسها بأنها رفعت باب المجون حتى الذروة، مستندة إلى بعض السادة الكبار الذين يلتفّون حولها.

واقتيدت نينون في احتقار إلى دير «الماديلونت» في شارع فونتين المبنيّ منذ 1620، أي في العام نفسه الذي ولدت فيه، لاستقبال الفتيات الفاسقات اللواتي تشيع أخبار فجورهنّ. وهكذا وجدت نينون نفسها هذه المرة بين فتيات تائبات تحت إشراف امرأة اسمها جان ماري بولين.

هذه الأخيرة كانت إنسانية وطيبة وأرحم بكثير من النساء اللواتي قدن نينون إلى الدير، فعملت جهدها لتردّ لها قدر المستطاع حرية حياتها الماديّة. واستطاعت نينون، بفضل تجاربها الفكرية والفلسفية الكثيرة واحتكاكها مع الآخرين، أن تتوصّل بعد جهد فكري عنيف في حياتها

الحاضرة إلى نوع من الاستسلام والطمأنينة في الدير.

والراهبات اللواتي لم يعرفن الحياة المادية على الإطلاق، أحببن كثيراً الإصغاء إلى نينون وهي تحدّثهنّ عن مغامراتها وحياتها الصاخبة المليئة بالمفاجآت والنوادر والقصص الطريفة. فأظهرن لها من التودّد والمحبة ما جعلها تغيّر رأيها القديم في بغض بنات جنسها وتكتب إلى بواسروبير: « أظن أنني سأتلوك من جديد. فلقد بدأت أحب بنات جنسي.»

لكن إذا كانت نينون استطاعت أن تكيّف نفسها وترضى بواقعها، فأصدقاؤها لم يقنعوا بذلك. فعند سماعهم بخبر توقيفها والذهاب بها إلى الدير، عمّهم الاستياء والإستنكار لهذا العمل القبيح والمستهجن. ومن هؤلاء الأصدقاء السادة الصغار والسادة الكبار، بالإضافة إلى «حزبها» من روّاد صالونها الدائمين. كيف يمكنهم حجز امرأة مثل هذه المرأة بدون أية محاكمة، وكان باستطاعتها للتخلّص من ذلك أن تختار رجلاً شريفاً تتزوّجه وينتهي الأمر؟

وتحمّس عدد من الشباب لدرجة أن حديثهم لم يعد يتناول غير دعوتهم الصادقة للهجوم على الدير وإطلاق سراح نينون.

وهكذا كان الليل مسرحاً ممتعاً لهؤلاء ليدوروا حول الدير يتسلّقون الأسوار ويمدّون الحبال وكأنهم يعدون خطة هجوم ضخمة. أما الراهبات فكنّ يتسلّين جداً بذلك ويتمنين أن يحدث شيء ما لاختطاف رفيقتهن الجميلة وإعادة حريتها إليها. وكنّ ينتظرن الليلة الموعودة التي سيقتحم فيها أولئك الشبان الدير.

وصاحت جان النمساوية في من حولها قائلة:

ـ هذه الـ «نينون» في الحقيقة خطر كبير! إني أراها ستضع باريس من جديد في النار والدم والفوضى.

فأجابت مدام غرامون: تلك ضجّة كبيرة لا تستحقها محظية. ولو انها كانت امرأة شريفة لما وجدت حولها كل هذه السيوف المتحمّسة لنجدتها!

وفي الحال أمرت الملكة بإبعاد نينون عن باريس إلى عند راهبات «لاني» تحت حراسة شديدة. وهناك سمح لها باستقبال زوّارها. فتدافعت العربات إلى باحة الدير في موجات من الفرسان لا تنقطع بين باريس و«لاني». كل أصدقائها ومقرّبيها والذين أحبتهم أو انتظروا منها أن تحبهم في دورهم... أتوا لزيارتها. وهناك كان باستطاعتها أن تدرك حقيقة عواطف جميع من الذين اتصلوا بها في الماضي وكانت فخورة بهذا الاهتمام الذي أبدوه نحوها، إذ شعرت بأنها بالنسبة لهؤلاء جميعاً إنما كانت الرمز المحبوب للحياة الطليقة التي يمكن أن يتصرّف بها المرء على هواه. هكذا، فبدلاً من أن ينقص قدرها أمام الجميع، ارتفعت قيمتها وجعلت فلسفتها في الحياة مساوية لأعمال البطولة في نظر الكثيرين من الناس.

وقد جمع صاحب النزل في تلك المدينة ثروة من الزوار الكبار.

ولقد كان الأب بواسروبير اوّل المتحمّسين لتعزية نينون في موقفها هذا الذي وجدها فيه بتمام مزاجها الأخلاقي وسخريتها وتهكّمها. وعندما كان فيلارسو يأتي لزيارتها، كانا يتذكّران الساعات الحلوة التي قضياها سويّة. وكانت تضطرب أمام هذا الشخص وتتألم كما لا تتألم ابداً أمام غيره.

وذات يوم إذ كانت تنتظر خصوم الجوقة المعتادة وآهات التمجيد والإطراء والاستحسان، انفتح الباب وشاهدت شخصية غريبة تدخل عليها نصفها رجل ونصفها الآخر امرأة. وكانت هذه الشخصية ذات وجه واسع وأنف مخروطي وثغر عريض. والعينان اللتان توقّفتا على وجه نينون كانتا كبيرتين تشعّ النار منهما. أما البشرة فقد كانت صافية بالرغم من وجود بعض الحبوب المبعثرة عليها هنا وهناك. أما القبعة فقد كانت في غاية الغرابة: تصور شعراً مستعاراً كبيراً للغاية منفوشاً من الأمام وسميكاً على الجوانب وفوقه تركّزت قبّعة كبيرة سوداء. وكان الرداء أرجوانياً. والقميص يلفّ صدر هذه الجثة الضخمة ويتولّى فوق سروال غير مربوط جيداً.

هذه الشخصيّة الغنيّة المظهر، ذات الأرداف الضخمة، مدّت نحو نينون يداً بيضاء، بينما انحنت نينون في وقار بحركة لا إرادية. وقالت الشخصية الزائرة في ابتسامة عذبة: أنا الملكة كريستين ملكة السويد. وقالت نينون في ارتباك: هذا شرف عظيمٌ لي!

وكانت الملكة كريستين، إذ نودي بها على العرش، تزور أوروبا بكاملها. وكانت ذكيّة جداً تتقن ثماني لغات وخصوصاً اللغة الفرنسية التي تجيدها بطلاقة. ولكنها ليست متّزنة في تصرّفها. كان باستطاعتها أن تكون إمبراطورة رهيبة الجانب لولا خفّتها في مسلكها. وقد احتفل فيها في باريس الكتّاب والشعراء الذين كانت تراسلهم. وإذ سمعت بهذه المرأة المدهشة التي شغلت باريس، قالت: «أريد أن أرى نينون. أين هي الآن؟ فقيل لها: إنها محجوز عليها في دير لاني. فقالت: هذا غير ممكن! إن حجز هذه المرأة الذكيّة المفكّرة فضيحة لا تطاق! فلنذهب إلى لاني!»

وها هي قد وجدت نينون جميلة ومحبوبة كما كانت تتصوّرها، فضمّتها إلى صدرها وجلست بجوارها وسألتها قائلة: قصّي عليّ قصّتك! لماذا أنت معتقلة هنا؟

فراحت نينون تقصّ عليها ذلك بينما هرولت الملكة إلى النافذة غير مصغية إلى حديثها وقالت: ما أجمل هذه الغابة الفرنسية العذبة! وإنك، من وجهة نظر خاصة، لست تعيسة على ما أظن!

ثم عادت إلى نينون وتأمّلتها من جديد ثم ضمّتها إلى صدرها بحرارة وارتمت بعد ذلك على السرير بدون أية مراعاة للتقاليد والأبّهة الملكيّة، وسألتها من جديد أن تبرز مسلكها المتدهور الذي اتّخذته لنفسها، وقالت: ولكن قبل أن أسألك ذلك، أريد أن أؤكّد لك إعجابي برقّتك. فقالت نينون بلطف كثير: وأنا كذلك، أريد أن أقول نفس الشيء إذا لم يكن إظهار الإحترام نحوك يوقعني في الخجل.

ـ أي احترام هذا الذي تتحدّثين عنه؟ أنا جئت إلى هنا كصديقة.

وأخذت راحتها بدون كلفة، فمدّت قدميها على خشب السرير، وقالت لنينون: تكلّمي، إني مصغية لكلّ ما تريدين أن تقوليه! وجعلت نينون تروي حكايتها. وجعلت الملكة كريستين تقاطعها ضاحكة في مرح خصوصاً عند ذكر الحوادث المتعلّقة بحماقات التقاليد، وقالت لها:

ـ ألم تفكّري أبداً بالزواج؟

ـ قد اكون فكّرت في هذه الحماقة وأنا طفلة. ولكنني بعد ذلك فهمت بأنني لم أخلق لمثل هذه النهاية. فقالت كريستين:

ـ وأنا كذلك. إني أمقت الزواج، حتى ولو أن ملك العلم كله وضع على قدميّ تاجه وصولجانه وكان أجمل فتيان الأرض، لرفضت الزواج به بكل تأكيد. الحرية والفلسفة والشعر... هن الحسناوات اللواتي أداعبهن الواحدة تلو الأخرى! آه... يا لهذه الحياة الساحرة... هناك أشياء أخرى تدغدغ شعوري غير حماقة الزوج!

وكانت نينون تفكّر بما ستنتهي إليه الملكة في كلامها عن الأشياء الأخرى، إذ غيّرت هذه الأخيرة الموضوع وراحت تتكلّم على باريس وأعضاء الأكاديمية الفرنسية التي زارتها مؤخّراً. وعند ذلك أخذت نينون دورها في الكلام على باريس التي تعرف عنها ما لا يعرفه أحد سواها: عن المجتمع الأرستقراطي، وعن البلاط، وعن صالونات المدينة والجو الفكري الذي يغمر الأناس العاديين، وعن حرية المغامرات والأحداث الطريفة. وأخذت الملكة تقاطعها أثناء حديثها بالاهتمام الجدي أو بالضحك أو بالتهكّم وسألتها فجأة:

ـ ألا تريدين المجيء معي إلى روما؟

لكن نينون لم تكن ترغب في أن ترتبط بصلة قوية مع امرأة كهذه تفصلها عنها مسافات بعيدة جداً. ولا تحقّق انسجاماً ما.

فاجابتها قائلة:

ـ ولكنني لا أستطيع الخروج من هذا الدير، فأنا هنا بأمر من الملك ولا أستطيع الخروج إلّا بإرادته.

ـ هذا لا يهمّ. سأحدّث الملك غداً في شأنك وسأبلغه طلبي. فبأي حق يحجزون أذكى امراة في المملكة كلها؟ سوف يفرجون عنك وسوف آتي أنا لآخذك من هذا الدير.

ـ أنا أشكرك أعظم الشكر يا مولاتي! وإذا تكرّمت ورددت إليّ حريّتي فسأقدّسك طيلة حياتي. أما من ناحية مرافقتي لجلالتك إلى روما، فأرجو أن تعذرينني. غن لي مزاجاً متقلّباً وأنا متأكّدة من أنك لا تستطيعين احتمالي. وإذا احتملتني فسوف أزعجك دون أن يكون لي قصد في ذلك أو إرادة. لذلك أتمنّى قبول عذري!

فلم تلحّ كريستين عليها، وشعرت أن وراء لطافتها في الكلام غرادة عنيدة لا تلين. فقالت لها: أهكذا؟ أنت متقلّبة ابداً؟ أصحيح إذن انك تتّبعين أهواءك بدون مبالاة بالغير؟ انا أرى أن الحق إلى جانبك.

ـ لقد قرّرت مرة أن أعيش لرجل واحد، على شرط أن يكون شريفاً. وحاولت جهدي أن أحتفظ بهذا الحب. ولكن.. فقاطعتها الملكة قائلة:

ـ أن تكرّس المرأة حياتها من أجل رجل واحد، ذلك كان حلمي! ولهذا اعتليت العرش. ولكنني فشلت في مواصلة هذه الحياة، وها أنا أبحث عن أشياء أخرى ووراء أساطير خياليّة...

وإذ شعرت بالأسى يعصر قلبها انفجرت بالضحك وضمّت نينون من جديد إلى صدرها وانطلقت من عندها في سرعة العاصفة. ووفت بوعدها، إذ توسّلت إلى الملك لويس الرابع عشر أن يفرج عن السجينة. فأفرج عنها. وهكذا خرجت نينون للمرة الثالثة من الدير إلى الحياة.

في مدرسة نينون

*

إن نينون تريد أن تجمع أكبر قدر من ذكريات الحب والمتع والفرح المتواصل.

ومن أجل أن تشغل أيامها، أرادت أن تستفيد من خبرتها الطويلة في الحب. وها هي الآن تنفّذ فكرة جريئة طالما راودتها في لياليها الهاربة، ألا وهي فتح الطريق وتعبيدها للحب أمام الفتيان الأغرار لتمكينهم من إمتاع النساء وكيفيّة إعطاء اللذّة بطريقة تسر الجنسين.

وهكذا جمعت حولها بعض الشباب الذين باتوا يعبدونها مقابل تثقيفهم في هذه الناحية الصعبة والمعقّدة التي يلزمها حياة كاملة في سبيل إتقانها كمال الإتقان. وها هي تعطيهم بسهولة ثمرة تجارب حياتها الغراميّة الكثيرة في سبيل إعداد جيل جديد من الفتيان العشاق يكون باستطاعتهم أن يرضوا طلبات السيدات اللواتي سيبحثن عنهم لمهارتهم في ممارسة هذه الأفانين برغم صغر سنّهم.

ولكن الدروس النظرية في النهار كانت تتلوها دروس تطبيقية في الليل، مما أتاح لنينون معاشرة الكثيرين ممّن لم تعاشرهم سابقاً. وكانت تجد في

ذلك لذة أكبر وهي في هذه السن الناضجة. أما ما تبقّى من العلاقات فلم يكن يحزنها في شيء، كانت تدري أنها تمنح نفسها هذه المرة إلى الحب وليس إلى الحبيب.

ومن طلابها الذين عاشرتهم كعشيقة وأعجبوها، كان لويس دي نانسي، مركيز دي لاشستر.

وإذ تهيّأ ذات مرّة للذهاب إلى الضاحية في مهمة، دهش إذ لم يجدها مستعدة لأن تنتظره كعادة العشيقة المثالية. ولكن ذلك لم يكن يهمّها في شيء أبداً، فعليه أن يعتقد بأنها الآن بين ذراعي آخر.

وقبل أن يذهب سألها متوسّلاً: عديني بأنك ستكونين أمينة لي حتى رجوعي، أو فإني سأتعذّب.

ـ بالطبع أعدك! وهي إنما قالت ذلك لتسمح له أن يذهب بسلام.

ـ الكلام يذهب ولكن الكتابة تبقى يا نينون. اكتبي لي الآن على ورقة بأنك ستكونين مخلصة لي وحدي. فضحكت وهزّت كتفيها، وقالت: هذا شيء سخيف. فإن لم تقتنع بكلامي فما الذي يجبرك على الاقتناع بكتابتي؟

ـ أرجوك أن تكتبي، فذاك سيغمرني بالفرح!

ـ أنا أكتب لك ذلك كما أكتب إلى طفل.

وكتبت: « أنا أعد بأني طيلة مدّة الغياب في الضاحية سأكون أمينة ومخلصة للويس، كونت دي نانسي، مركيز دي لاشستر.»

وسألته بسخرية: هل تريد أيضاً أن أكتب على الورقة ألقابك جميعها؟

فقال: لا، لا، هذا يكفي. أنا سعيد الآن.

ـ كن إذن سعيداً أيها الرجل القليل الإيمان.

وذهب لوشستر منفوخاً بالكبرياء، وراح يمنة ويسرة يطلع كل من يصادفه على قصاصة الورق التي كتبتها نينون، كما راح يتبجّح بأنه أسر قلبها وأنها ستخلص له مدى غيابه.

ولا شكّ أن نينون ضحكت عليه واعتبرت أنه شخص سخيف ولذلك، وبكل سهولة كعادتها دائماً حذفته من حياتها الغرامية، وبدون أن تجهد نفسها في التفكير به، لأنها لا تزال مرغوباً فيها لدى الكثير من الشبان ذوي الجمال والمال والمركز والجاه.

واختارت آخر راحت تتنزّه معه في حدائق باريس أمام الناس جميعاً. وكانت تردّد دائماً في محادثاتها مع بعض الأصدقاء هذه العبارة التي راحت تتناقلها الألسنة في باريس للتسلية وكمثل: «آه! يا لورقة لاشستر الرائعة!»

وبعد ذلك تعوّدت على نكث الوعود التي تقطعها لا بل صارت تجد لذّة في ذلك. وكم شاب عاشق ملأ الزهو نفسه لوعودها وإذا بها تلتقيه في اليوم التالي وكأنها لم تصادفه في حياتها. بل إنها بعدت أكثر من ذلك بكثير. واتّخذت موضوع الزواج لعبتها الكبرى. فكانت تعد هذا وذاك بالزواج بها، ثم تعبث بأولئك الحمقى المأفونين.

لكنها كانت منصرفة بجدّ إلى تثقيف الشبيبة جنسياً. حتى أن شافنياك كتب يوماً ملخّصاً تأثيرها في هؤلاء قال: « إذا أراد أحد السادة أن يجعل من ابنه رجلاً صالحاً في فنّ الحب والجنس، فليس عليه إلا أن يرسله إلى

مدرستها. فهي كفيلة بأن تلقّنه أصول المداعبات وفن إرضاء المرأة مهما كانت صعبة المنال بالتعابير اللطيفة المغرية.

لقد خبرت كثيراً من معاشرة الرجال والنساء وتعلّمت بذكائها ما لم تختبره. ولذا فهي تعطي هؤلاء الشبّان أحكاماً دقيقة لا تقبل البحث في نتيجتها وحساسيّتها، كالأحاديث الساحرة الجذّابة المليئة بالمقبّلات، وأحياناً بشيء من التهريج، حتى أن هؤلاء الشبان أخذوا بها ولم يعودوا يحلمون إلا بإكمال دراستهم لهذا الفن على يد هذه الأستاذة!

وكانوا يسألونها مثلاً: ما هو الحب؟ وكيف العمل للنجاح فيه؟ فتجيب:

ـ الحب ذوق، وهو مبني على الحواس. وشعور أعمى لا يفترض أبداً تجاوباً أو استحقاقاً من المحبوب. وبكلمة مختصرة، هو نزوة لا ترتبط بقاعدة ولا بمنطق.

وكان بعض هؤلاء المراهقين يسألونها عن الحب الأفلاطوني، فكانت هي تقرأ لهم بسخرية هذه العبارة من سان أفريمون: « إذا أحببتم أن تعلموا كيفية نجاح ذاك النوع من النسوة المتحذلقات، فلتعلموا بأنهن يندفعن نحو عشاقهن بدون تمتّع، ويتمتّعن مع أزواجهن بدون حب.»

وسألوها ذات يوم إذا كانت طريقة الصبر والرقة باستطاعتها أن تكون أقوى تأثيراً من الجرأة. فأجابت عن ذلك بدقة متناهية قائلة:

ـ عليكم ألا تفكّروا أن هناك درجة عالية من الفضيلة عند النساء. فكّروا فقط بأنهن لا يستطعن المقاومة طويلاً. وأنا أعلن لكم بالنيابة عنهن، بأنهن يفضلن الجرأة على المداهنة الطويلة الأمد.

مكسه ٢٨٧

وكانوا يأتونها أحياناً بمقالات ويسألونها رأيها حول هذا الموضوع أو ذاك. ومرة جاءها تلميذ بأخبار الفضائح الشنيعة التي سمعها عن مدام روهان، هذه العاشقة المجنونة التي لم تدع باباً من أبواب العشق إلا ودخلته هي وجميع عشاقها مؤلّفين أحياناً تمثيليات صامتة يستخدمون بها الإشارات دون الكلام، حول موضوعات العشق، وقصصاً عن الرئيسة إيسكولابيه التي لم تكن تخاف من الدخول في غرفة واحدة مع ثلاثين رجلاً من قطيع ميوسنس.

ونينون التي لم تمارس إلا الحب الصريح والصافي، كانت تشرح لهم بأن أولئك النساء، بمبالغتهم في ذلك، إنما يقضين على حقيقة المتعة في الحب: فعدم الحياة شيء بسيط ولكن عدم الذوق فشيء بشع جداً. وكانت تقول: « وفي الحب أيضاً يجب أن يملك المرء قياساً وذوقاً»

وكانت تنصح هؤلاء الشبّان بالجرأة الذكيّة، لا بالحياء. فالحياء أحياناً يقتل الحب. قد تكون حركة بسيطة في غير موضعها كفيلة بالقضاء على الحب. فهناك نوع من الفتيات لا يهمّهن إلا أن يظفرن بالشاب بأبسط الطرق، ونوع آخر يلزمه حكمة وتدبير لترويضه.

وهكذا كانت نينون تصرف وقتها وجهدها نحو الحب، هذه العاطفة التي وقفت عليها حياتها. وكانت لا تألو جهداً في سبيل تمكين تلامذتها من الفهم والتعمّق في هذا الفن، مما كان يجعل الشبان يفتخرون بكونهم تلامذة نينون.

وكانت أحياناً تنتقل من اتلتعليم النظري إلى التطبيقي. لأن النظريات قلّما تتمكّن من النفوس الناشئة بدون شيء ملموس. وهذا مما يبعد

نينون عن أصدقائها وزائريها ويشغلها عنهم، لذلك أخذوا يكتبون إليها بالرباعيّات الشعرية الساخرة.

وبما أن نينون كانت ضعيفة المقاومة أمام الجمال، فقلّما أفلتت من هواها واحداً من تلامذتها الجميلين الذين لا يلبثون أن يظهروا لها بعد وقت قليل تافهين لا معنى لهم، فتحسّ بالملل إلى جانبهم. وما أندر ما وجدت بينهم الشخص الذي يثير فضولها وحبها للمغامرة، فهي متهيّئة دائماً لتستجمع كل قواها وتستنفدها بسرعة.

وذات مساء حينما كانت في المسرح، وجدت نفسها جالسة بجوار رجل ذي بنية ممتلئة كما تحبّها. ونينون حسّاسة جداً تجاه هذا النوع من الرجال. فاستدارت بعينيها إليه في اللحظة التي كان هو يثبت نظره عليها، وإذا التقت عيناهما ابتسما، وبسرعة قدّم لها نفسه في ثقة الرجال الأغنياء: دي موسو، قائد حرس ملكة سويد.

فتبادلا بضع كلمات حول السويد وحول الملكة نفسها. وشعرت نينون ببعض الخجل بينما كان هو يحدّق فيها بدون أي تأثّر أو اضطراب أو احترام مبالغ فيه، كما هي عادة الرجال أمام النساء.

من يكون هذا؟ هل يعرفها؟ ليس له ملامح رجال البلاط. وراحت تشاهد المسرحية بشرود. وبعد انتهاء المشهد وجدت نفسها بين بعض أصدقائها الذين التقتهم فجأة، فسألتهم عن هذا الرجل، فقيل لها إنه مغامر مجهول المولد، وقد طاف العالم كله تقريباً ثم اشتغل جندياً في السويد حيث عيّن قائداً لحرس الملكة. أما بعض الفرنسيين الآخرين فقد راحو يوضحون لها أنه رجل غير متأدّب وينقصه الذوق.

ومع أن نينون لم تكن من أصل نبيل، إلا أنها عاشت كل حياتها وسط النبلاء في البلاط وتعوّدت تلك الحياة الاجتماعية الأرستوقراطيّة، ومع ذلك فقد أعجبها موسو هذا، فتنهّدت قائلة: آمل ألا يكون باروناً على الأقل.

ـ هل أعجبك هذا الحيوان الكبير؟

ـ سأدعوه إلى عندي مهما كان الأمر.

لم تكن بحاجة إلى مهمة لدعوته. فقد كانت لا تزال في سريرها في صباح اليوم التالي إذ سمعت جلبة في الغرفة الصغيرة المجاورة لها، ثم سمعت صوت رجل أجش يأمر خادمتها وخادمها بشيء لم تتبيّنه. وفجأة هرعت إلى المكان فإذا بالقائد السويدي في غرفتها. فخفق قلبها بقوّة، لكنها أرادت أن تظهر بمظهر المنزعج. قالت:

ـ وأخيراً، يا سيّدي، من أنت حتى تقتحم عليّ المكان بدون استئذان؟

فقال بهمجيّة: ليس لي اسم!

ـ ومن أين أنت آت؟

ـ أنا كطائر ليس لي مكان معيّن.

ـ وأين نشأت؟

ـ في كاندي...

كان يجيبها بخشونة وبدون لطف وبتملّق، وفي عينيه بريق الشهوة. وقالت: يا إلهي! أي رجل هو هذا! من غير المستبعد أن تكون قاطع طريق؟ يا بيارو احذر بأن لا يسرقني.

ولكنها كانت تدرك ماذا يريد أن يسرق. وأخذت دي موسو كعشيق عابر. وأبقت هذا الحادث سرّاً كتمته عن الآخرين: ووجدت عند موسو خبرة وتجربة لم تكن تحلم بها، ممّا أضاف إلى صفاته الأخرى شيئاً محموداً.

وكان لها في الوقت نفسه عشيقاً آخر يأخذ دور المموّل. وهو مغامر كهذا لكن من نوع آخر.

كان جان هيرولت يملك «عبقريّة» مهمة في المال أولاً وكان في الماضي مستخدماً عند آل لاروشنوكو، وهي عائلة كبيرة ونبيلة. وبما أنهم لمسوا فيه الذكاء والإخلاص اعتبروه كصديق لهم أكثر من مستخدم عندهم. وإذ واتاهم الحظ وكسبوا ثروة كبيرة، أنقذوه من الفقر الذي كان يتمرّغ فيه. وفي حرب الفروند وجده مازاران في الكذب والمداهنة زميلاً له لا يشق له غبار، وسياسياً ناشئاً، وبهذه الصفات استطاع أن يفوز ببعض التجارب والأحداث التي عرضت له.

في هذا الوقت بالذّات كان تعرّفه إلى نينون التي أعجبته فيها هذه الخبرة وهذا الوثوق بالنفس، كما أعجبها فيه الصفات ذاتها. وقلّما افتخر أمامها كغيره بسرد أحاديثه الغراميّة وانتصاراته الباهرة.

ربما أنه كان يشغل مع «فوكيه» في وزارة المالية، فقد تعرّض حين الغضب على فوكيه وإقالته، إلى الخطر. فهرب، وأخفى ثروته في أماكن موجود بها في فرنسا. فأودع مبلغ ستين ألف ليرة عند سكرتيرة نوتردام، كما أودع مبلغاً بذات القيمة عند نينون. قال لها: أنا أعتبرك، أوثق شخص عرفته. فقالتع له: كن مطمئناً، هذا المبلغ سينتظر عودتك كما هو. وإذا مرضت أنا وأصبحت في حالة خطرة فسوف أودعه أيدي أمينة.

وحفظت هذا المبلغ مدّة خمس سنوات.

وفي عام 1668، عاد هيرولت إلى فرنسا حيث حظي بمنصب كبير. وعندما طالب بماله المودع علم بأن ذلك السكرتير التابع للكنيسة أنكر أنه استلم شيئاً أما نينون فقد أعادت له المبلغ كما هو مما أثار إعجاب وتقدير جميع أصدقائها. حتى أن سان أفريمون صار يلقبّها بعد ذلك في رسائله التي كانت تردها من لندن «بحافظة الأموال»

وفي الوقت الذي كان فيه هيروليت في المنفى، مرّت على نينون ساعات عصيبة تخبّطت فيها لشدّة حاجتها إلى المال أو إلى مموّل. ثم وجدت شخصاً، وكان هذا الشخص المحظيّ الجديد هوليون فورو. ولكنه كان سميناً مضحكاً وبدون فكمر، واختصاصه في وزنه فقط...

وكانت تعتبره سوقباً مبتذلاً، وتعامله كما تعامل السوقي تماماً، في حين وجد نفسه فخوراً بحمايتها لا بل وجد له حقوقاً عليها. ولذا باتت تحتقره، لا سيّما وهي تعرف أنه اغتنى بسبب بعض الصفقات غير المشروعة، فتقرصه دائماً بالكلام اللاذع، فيسكت عنها.

ومنذ ذلك الحين رفضت استقباله في مخدعها، ولكنها استمرّت في تقبّل ماله لتأمين معيشتها. وعندما استقام لها الأمر، طردته بلا تأسّف.

نينون «المرأة المتميّزة»

*

وحملت لها السنوات التالية مركزاً فاخراً، ذلك أن بيوت بعض السيدات الكبيرة انفتحت أمامها، وخصوصاً أولئك اللواتي يعجبن بالتفكير ولكنهن لم يستطعن ممارسته، واعتبرت نينون إحدى النساء «النادرات» في ذلك الزمن.

النساء المتميّزات كنّ آنذاك يتعاطين المهنة الأدبية من رسائل وأشياء أخرى من هذا القبيل، وكانت تتميّز لغتهنّ بالتدقيق في العبارة والأناقة والسهولة، مما كان يضفي عليهنّ صبغة أنثوية جميلة. وبعد ذلك عقدن لهن رابطة، وتزعمن حركة المطالبة بتحسين حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، وكتبوا ضد سيطرة الآباء والأزواج، وضد الزيجات التي تتمّ تحت الإكراه لتقديم الفتاة لرجل لا تريده، أو خضوع المرأة للزوج في كيفية إنجاب الأطفال تبعاً لذوقه الخاص دون أن يكون لها صلة وثقى بذلك بالرغم من أن صحتها هي التي تتدهور في الإجهاد المتواصل والحمل. وفوق ذلك أخذ النساء على عاتقهن محاربة الحب الإباحي والتقليد الصارمة والعادات الدينية المستبدة، والكثير من المنطق الإجتماعي السائد في ذلك الحين. أما مسلك نينون الخاص تجاه الحب

فقد أعجب به الكثير، لأنه، ولأول مرة في ذلك المجتمع، وضع للحب قوانين صريحة ظاهرة لا تعتمد الرياء والخفاء. فكان من ذلك لنينون مركز مرموق في هذه الرابطة، كما كان لها أيضاً صديقات منهن يدافعن عنها ويعتبرنها نموذج للمرأة.

في هذا الوسط الأنيق كانت صديقاتها أمثال هنرييت كولوتي، وكونتس لاسيزي ومدام كونيل. وكانت هذه الأخيرة مفكّرة شيطانيّة، لها مطارحات مدهشة ولا تسمح لأحد أن ينتقدها.. وفي أحد الأيام، إذ هاجم لصّان عربتها وأوقفاها ومدّ أحدهما يده إلى عنقها، وكانت قد تقدّمت بالسن، لم تجزع أبداً، بل دفعت عنها يده وقالت بجرأة:

ـ ليس عليك إلّا أن تغتصبني يا صديقي، لأني لا أملك مجوهرات ولا حلمتين ناضجتين للمداعبة.

وكانت سنة 1694 عجوزاً، ولكنها احتفظت في سنها تلك بظرفها وفكاهتها مما جعلها مطلب الكثيرين.

وكانت الكونتيس هنرييت لاسوزي تحب نينون كثيراً، وفي إحدى الحفلات، وبعد أن تقدّم الليل، جلست نينون على قدمي هنرييت وجبهتها على ركبتيها وغفت. فراحت الكونتيس تهدهدها وتغني لها بعض المقطوعات الشعرية من تأليفها. ذلك أن هنرييت كانت تنظم الشعر، كما كانت قد منحت نفسها إلى عشيق نينون السابق، مارا. ذلك لأنه كان هو الآخر أديباً.

وكانت الكونتس لاسوزي، بذكائها وجمالها وحيويّتها، تبعث روح التسلية والإعجاب والحب عند نينون.

أما الآنسة سكوداري فقد كانت بالعكس من ذلك، لا تملك صفة واحدة من تلك الصفات الإجتماعية التي تحبّب الناس بها ولذا لم تكن نينون تقدّرها كثيراً. ومع ذلك فهذه الآنسة محترمة من الكثيرين لأنها كانت روائية تكتب القصص والروايات الطويلة ممّا جعل لها اسماً وشهرة لا بأس بهما.

وفي رواياتها، كان الأبطال دائماً هواة مناقشة حول المواضيع الأدبية مما جعل نينون تحكم بأن هذه الروايات تنقصها الحركة والتخفيف من الكلام.

أما نينون فقلّما تعاطت الكتابة ـ عدا الرسائل ـ وعدا أقصوصة صغيرة بعنوان «المرأة المنتقمة» حيث جعلت من نفسها البطلة باسم آخر. وكانت هذه الأقصوصة مثار هجوم ونقد لاذع. بعد هذه الأقصوصة رزقها الله برجل غيور على الأدب هو لويس لاكلاش الذي جاء إلى صالونها وراح يحدّثها عن الأدب ويهاجم الأدباء «السخفاء البسطاء» مثل بلزاك وراسين.. وغيرهما ويعتبر انشغالهم بهذه المواضيع «السخيفة» عجزاً عن التفكير بالمستوى الفكري الكبير كقصص الفلسفات الأفلاطونية والسقراطية وسير الأبطال والتواريخ العظيمة. وعرض عليها أن يعطيها دروساً باستطاعتها معها أن تفهم من الأدب ما لا يمكن أن تفهمه لوحدها ولو قرأت مئة مجلّد، فقبلت. وابتدأت المهزلة الكبرى.

وإذ علمت نينون أنه رجل سخيف لا يحتمل، حاولت بكل الطرق الممكنة والمهذّبة أن تطرده فلم تفلح. حتى إذا كانت إحدى السهرات الكبيرة في صالونها ناقشها البعض حول مفهوم الحب الذي استخلصته من حياتها فقالت محدّدة ذلك:

ـ الحب هو الشهية التي يحسّها الإنسان نحو ما يعجبه ويرضيه. فراح لاكلاش يناقضها ويفنّد أقوالها وهي صابرة. وأخيراً أمسكت بالقيثار وعزفت أحد الألحان الرائعة. فقال أحدهم:

ـ هل في مشاريعك تصميم لشيء جديد في الرقص؟ فقالت:

ـ لا.

فتابع أحد الجالسين استفهاماته قائلاً: وهل ترغبين في صنع شيء جديد؟ فقالت: بالطبع، أنا أرغب في ذلك، ولكنني لا أملك الوقت الكافي لأضع تصميماً. وهنا قال فجأة وبكل تأكيد: سأضع أنا تصميماً وسوف يقرأه كل واحد...

فانفجر الجميع بالضحك، وعندما أدرك لاكلاش أنهم يسخرون منه ترك الصالون غاضباً وقال لنينون:

ـ ها أنا أرى جيداً أنني لن أستطيع مساعدتك وتوجيهك في المستقبل.

فتنهّدت نينون بارتياح عندما انغلق الباب وراء ظهره.

ولكنها لم تتخلّص منه كليّاً إذ أرسل لها بعد وقت قصير أحد تلاميذه فبيكس جوفنيل، وهو رجل متحذلق لم يكتب حتى ذلك الحين ـ وقد بلغ من العمر الخمسين ـ شيئاً ذا قيمة، ومع ذلك فهو يحاول دائماً أن يكتسب الشهرة بالحيلة.

وأدركت نينون سخافته وانزعجت من ثرثرته حول أدبه أمام النساء، محاولاً دائماً متابعة الكلام حتى ولو لم يصغ إليه أحد.

وأرادت نينون أن تتخلّص منه بطريقة ما. ووافتها الفرصة بعد وقت

غير طويل غذ صمّمت ان تصنع معه ما صنعت مع أستاذه الراحل لتدفعه للهرب بدون رجعة.

دعته سيدات الصالون وأصحابهن إلى محاضرة يلقيها عليهن حول الموضوع المهمّ لديه. فلم يصدّق ذلك، وراح ينمّق العبارات ويزخرفها ويأتي بالكلمات الغريبة العجيبة دلالة على طول باعه في اللغة والأدب، وبعد أن انتهى من ذلك تعالى التصفيق من كل ناحية إعجاباً وتقديراً لموهبته العظيمة.. وانهالت عبارات الإطراء والإعجاب من الجميع وخصوصاً من السيدات، وانفردت واحدة منهن بالإطراء الممزوج بالتغنّج إعجاباً بشخصه، وراحت تكيل له المديح وتبلغه رأي بقية السيدات به. وإذ لمس منها كل هذا التقرب، ظن أنها متيّمة بسحره ومغرمة به، فحاول تقبيلها في إحدى الزوايا فصاحت ولطمته لطمة قويّة على وجهه وهربت مستنجدة بالحاضرين. فتكاتف الحاضرون عليه مستنكرين هذه الفضيحة التي لا يقبل بها الذوق...

التأثير على النساء شيء وإجبارهم على أمر معيّن شيء آخر، فهل هذه طريقة مقبولة للرجل الشريف؟ لا بالطبع، فالمنطق والحق العام بجانبهنّ. وناوله واحد من الحاضرين ضربة على أنفه قائلاً: «هذه من أجل الفلسفة.» والآخر صفعة هائلة: «هذه من أجل الموسيقى.» وثالث وخزة بدبوس: «هذه من أجل الشاعر المغرم.»...

وسهّلت له نينون طريق الهرب وهو مدمّى يكاد يقع على الأرض من شدة الضرب وصاح قائلاً: ايتها المتغنّجات المتدلّلات، سأنتقم منكن!

لم يبق الحادث مكتوماً، فقد عرفت به باريس كلها. وأراد لاكلاش أن

ينتقم لنفسه فكتب مقالة هاجم فيها نينون ومدرستها وأصحابها وفلسفتهم في الحياة وطريقة معيشتهم بدون أن يذكر الأسماء او يعيّنها.

هذا الهجوم الذي تناول الناحية المتحرّرة التي كانت تمثّلها نينون في الحب وفي طريقة الحياة تلك، علمت أنه موجّه بالتالي إلى شخصها وإلى مجمل هذه الحياة الطويلة التي أرادت أن تجعل لها نتيجةً وموضوعاً. فأخذت على عاتقها الردّ على هذا المدّعي، وكتبت مقالة طويلة شرحت فيها كذبه وادّعاءه واضطرت من أجل اهميّة المقال أن تعلن عن حقيقة هذا الشخص وأستاذه وما أوجب طردهما بهذه الطريقة.

وفي هذه الأثناء وضع الشاعر العظيم موليير مسرحيته عن «النساء المتحذلقات» ولعبها على مسرح بتي بوربون وسخر من أولئك النسوة بطريقته اللاذعة الشهيرة. وقد مُنعت المسرحية في البدء على أثر مظاهرة كبيرة قامت ضدّها. ثم اجيز عرضها. وكانت المعركة في الحالتين حامية الوطيس وقد هاجم «سوميز» في معجمه الذي تناول فيه «النساء المتأدّبات» الشاعر موليير بعنف، كما شنّع على سيدات هذا الحزب المتحرّر وحاول السخرية منهن، ولكنه لم يستطع أمام نينون إلا ان يعترف بنبوغها وجمالها وتأثيرها على من حولها.

واحتقرت نينون هذا النوع من الهجوم، وآثرت الشاعر موليير بالرغم من انتقاداته اللاذعة. لذلك راحت تتتبّع مسرحياته لأنها أحسّت بواقعيّة هذا الفنان الكبير كما تجسّد النماذج التي يصفها بأشخاص حقيقيين عرفتهم. وبعد غياب سان أفريمون لم تجد بالناس مفكّراً وصديقاً باستطاعتها أن تناقش ذلك معه. وإذ شعرت بأنها وحيدة، تقرّبت اكثر فأكثر من موليير العظيم ورجته أن يزورها أكثر من مرة، حتى إذا قبل زيارتها،

أصبحا صديقين حميمين. وكان يشرح لها قبل البدء بالمسرحية تصميمه الخاص. وقد حاولت جهدها أن تساعده في تقديم النماذج، وتحمّست جداً لمسرحية «مدرسة النساء» ومسرحية «مدرسة الأزواج»، فهناك كانت مسألة التثقيف الاجتماعي تعرض بكل سهولة وبساطة ووضوح.

وطلب منها مرة، إذ كان يفكّر بكتابة مسرحية حول الرجل المتملّق الكاذب والمدّعي الفضيلة، أن تحدّثه عن نموذج مرّت به، فحدّثته بقصة واحد من الكهنة هو الأب دي بون، وكيف صارحها بغرامه وحاول بكل الطرق أن ينال مأربه منها. مستشهداً في إقناعها بسير القدّيسين أمثال سان بول وسان فرانسوا وكيف كان الشيطان أحياناً يسكن الأجساد البريئة.

وهكذا اختمرت في ذهن موليير عقدة المسرحيّة فكتب تمثيليّته الخالدة «تارتوف» متّخذاً لها بطلاً قريباً من عشيق نينون ذاك. وقرأها قبل العرض على الملك. كما قرأها على نينون التي أعجبت بها إعجاباً أسال الدموع من عينيها وألهب نفسها بالنار. وتتبّعت الخصام الناشب بين أفراد المسرحية باهتمام زائد وكأن الأمر حيقة واقعة.

ومن الناحية المادية تابعت نينون حياتها تلك بتعقّل وحكمة. ثم اشترت منزلها ذاك الذي كانت تستأجره في شارع «توريل» شراكة مع صديق لها هو جيرار دي بورغ، وكان الاتفاق على الأثاث أن يكون في حال موت أحدهما ملكاً للآخر. وهكذا اطمأنّت من هذه الناحية التي كانت تشغلها لأنها أولاً لا تحب التنقّل، وثانياً لأن ذلك المنزل بالذات أعجبها لدرجة أحبت معها ألا تبدله مدى العمر. وكان لها ما أرادت.

وفي وقت مضى كانت نينون قد تشاجرت مع سان أفريمون حول

موضوع مزج الصداقة بالعلاقات المالية. وكان سان أفريمون يقرض صديقه «ألبين» مبالغ من المال يردّها له. وفي هذا الوقت القاسي بالنسبة لسان أفريمون أراد أن يردّ له صديقه بعض المال إذا كان ذلك مستطاعاً. ولكن «ألبين» وهو المثقل بالديون، لم يستطع إيفاء صديقه بعض ماله.

وعلمت نينون بذلك فصارت ترسل كل شهر مبلغاً من المال إلى صديقها المنفي على اعتبار أنها من «ألبين». وإذ علم بعد ذلك بحقيقة الأمر كتب إلى صديقة له يقول: « إذا كنت ترين الآنسة نينون دي لانكلو فارجو أن تخبريها بعظيم احترامي وحبي لها. أما من أجل المبلغ الذي ترسله لي دائماً فهو أسوأ مكافأة على ذكرى طيّبة!»

وعندما قرأت نينون الرسالة، شعرت بأنها جُرحت وكتبت له بضعة أسطر جاء فيها: « أرجو أن تعلم يا صديقي بأنني إنما أردّ لك بعض ما كان لنا من رصيد مشترك. المهمّ أن تحبّني في البعد وألّا تنساني. واحتمل قساوتي.»

نهاية يوم جميل

*

لم تكن نينون لتنسجم طيلة حياتها المتبقية ـ ذلك أنها ستعيش إلى عام 1705، أي إلى عامها الخامس والثمانين ـ إلا في الصداقة الحقّة. وكانت تقول: بقاء الصداقة وقوّتها ليسا بأقلّ شأنا من بقاء الحب وقوّته.لقد كان لي فيما مضى أوقات حلوة وأوقات سوداء. أما الآن فنسيت كل شيء غير أصدقائي الحقيقيين الذين أستطيع أن أتفاهم معهم.

صحيح أنها كانت كالعادة تستقبل الجميع في صالونها في كل الليالي، وان كلامها معهم كان رائعاً وحكيماً، لكن المرارة كانت تختبىء غالباً وراء الكلمات والمظهر. فكم صديق لها فقدته إلى الأبد وحلّ محلّه صديق جديد لا تعرف إلا اسمه.

لقد مرّت بفترة عصيبة وستبقى عصيبة ومرّة بالنسبة لها، ولكنها ستحافظ على ذلك المظهر إلى نهاية حياتها.

ومن صديقاتها الجديدات كانت مدام دي سابلبير، المرأة التي اصطدمت معها في صباها وأخذت منها زوجها وآلمتها.

لم تعد تزور أماكنها المفضّلة في العاصمة، وانقطعت عن أغلب

عاداتها التي كانت تستهويها في صباها، واكتفت بأن تتألم في صمت وصبر، وتقطع الوقت الطويل بالمطالعة لتنمّي ذوقها الأدبي وتزيد من ثقافتها ومعارفها. وأحياناً قليلة كانت تزور، على محفّتها، بيت صديقها سابلبير حيث تلتقي بكبار رجال الفن الذين تعرّفت ببعضهم في الماضي، ومنهم موليير وبوالو، والرسام مينيار، ولافونتين، وتالمان الذي كان يأتي إلى هناك ليلاحظ هذا وذاك من الفنانين والنساء وغيرهم ليتمكّن ان يأخذ منهم نماذج حقّة لأقاصيصه.

وهناك كان يقرأ لهم موليير بعض مقاطع من كل مسرحية جديدة له، فيعجبون بفنّه الجميل إعجاباً يبلغ حدّ التقديس.

وبعد وقت قليل علمت بنبأ موت هذا الشاعر المسرحيّ العظيم فبكت بكاءً مرّاً وشعرت بالفراغ يغزو نفسها ولكنّ إطار حياتها الرئيسي كان ما يزال يحتفظ بطابع أصيل، فكانت تبسط الجميع وتنبسط من الجميع، ولم تعد تتعذّب كثيراً في وحدتها لأن الزمن كان يخفّف من آلامها ويحمل من حملها شيئاً فشيئاً.

واحتفظت بالرغم من سنها تلك بقامة معتدلة وسليمة، وبمشية متكبّرة. ذلك أنها كانت تهتم بالإرشادات الصحية وتبتعد عن تناول المشروب وعن التخمة في الأكل وعن الدهن والسهر.

وتخلّت بعد ذلك عن لقب نينون فصارت تدعى فقط بالآنسة لانكلو.

وبات منزلها محور الأوساط الأدبية في باريس حيث باستطاعة الأدباء من كل لون وصنف أن يتناقشوا ويتحادثوا في مطلق موضوع يهمهم. حتى أن أشدّ النساء حمقاً وأكثرهنّ جهلاً، تأثّرن بسيرة نينون فصرن يحسبن

للذكاء والثقافة حساباً، وأخذن يطالعن ويعملن المستحيل ليظهرن بمظهر المثقّفات الممتازات.

وقد كتب سان سيمون فيما بعد يصف صالونها قال: « كل إنسان يدخل هناك باحترام، حتى أن أجمل الأميرات الشريفات لا يخجلن من زيارتها. وكانت تتبع في صالونها قواعد الاستقبال المرعية في البلاط تماماً. والأحاديث الفكرية كانت تدور عندها في جوّ من السمو دون مخاصمات وضحكات مجلجلة وشرب خمر وقمار. لقد استطاعت أن تجعل من صالونها بالفعل إطاراً رائعاً للحياة التي تريد.»

وقالت دوقة أوليان عنها: « ليس هناك رجل أشرف من الآنسة دي لانكلو» مع أن هذه الألمانية الحسناء لا تحب التملّق أبداً.

وظلّت نينون، كعادتها، جذّابة برقّتها وبساطتها وعدالتها وصدق نظرها نحو الأشياء جميعها. وكانت تقول احياناً كلمات رائعة وعبارات تستحقّ التقدير والاهتمام، مثال ذلك هذه الفكرة الرائعة: «عليك أن تختار بين حب المرأة أو معرفتها.»

ولم تتوقّف أبداً عن شنّ الحملات ضدّ التملّق والادّعاء والكلام الفارغ والمحفوظات التي يقولها المتأدّبون عادة في كل حفل وكل فرحة. وإذ سألها الفنان مينيار عن طريقة لتقوية ذاكرة ابنته، قالت:

ـ هكذا أحسن، فهي بذلك تتخلّص من المحفوظات على الأقل!

وكانت تكره كثيراً «التفاصح» والتكلُّف في التعبير، ولا تحبّ غير البساطة في الكلام والكتابة، والصدق في كل الفنون، وتشرح ذلك بقولها:

« الحساسية هي روح النشيد والغناء. فالصوت الجميل لا يمكنه أن يكون عبقرياً في فنه إلا إذا تخلّص من التصنّع وعبّر بصدق.» وأصبح الناس يهتمون لآرائها. والملك نفسه كان يهتم بها حتى بات من عادته، أثر كل حادث يجري في البلاط، أن يطرح هذا السؤال:

ـ ماذا قالت نينون في ذلك؟

وأنبل السادة وأعظمهم كانوا أصدقاءها. مثل كونديه الكبير ـ الذي لم يكن يهتم أبداً بأية امرأة ـ ومع ذلك اعتاد على زيارتها برفقة ولده فيليب دوق دورليان والقائد الكبير الذي كان يزور نينون لتعلم فن الذوق والفكر والحديث...

وقد كتبت أمه ذات مرة لصديق لها تقول: « ابني صديق للآنسة دي لانكلو. أنا مسرورة جداً بذلك، فهو على كل حال سيكتسب خبرة وثقافة تعينه على إبراز شخصيّته.»

جميع أصحاب الأسماء الطنّانة في تلك الحقبة كانت تجمعهم حولها. أمثال فيفون، دوق لوزون، ومينيار، ولولي، ولافونتين الذي كان يتذكّر معها الأيام الخالية السعيدة بعد أن شاخ هو أيضاً، ثم بوالو الذي بقي مخلصاً لها في صداقته، والدوق الشيخ لاروشفوكو كان يأتي إليها عندما يسأم من صالونه الكبير في نزله الخاص على ضفّة السين.

والنساء أيضاً كنّ يتكتّلن حولها، أمثال مدام لافاييت والمركيزة دي فيليت، وزالماريشالة كروكي، والكونتيسة أولون، والدوقة لافيرتي ذات الماضي الغرامي الحافل.

وظلّت هكذا والسنون تلوها السنون والزمن يأكل من جسدة شيئاً فشيئاً

لأنها أصبحت تحب العزلة وتكره أن يرى الناس جمالها يتشوّه. وأحياناً كانت تستقبل صديقة جاءت تشكو حظّاً عاثراً، أو تنفرد بغرفتها الخاصة تكتب إلى أصدقائها الغائبين الذين لا يزالون يوالون مراسلتها.

وانتهت علاقتها بالمجتمع أخيراً باقتصارها على صداقة بعض الشخاص الذين تعتبرهم من عائلتها، وكانت إذ تستقبل في بعض الأحيان طائفة من الشبّان الغار تقول لهم: « يا الله! كم تغيّر هذا الجيل الجديد عن الجيل الذي عشنا معه.»

وصرّحت بعد حين أنها لن تغيّر مسكنها أو أصدقاءها بعد الآن، وأنها ستكتفي بما هي فيه حتى آخر عمرها. وكانت ذكر سان أفريمون، صديقها الغائب ، تبعث في نفسها النشوة والحب والأسى. أما هو فقد في المنفى بشبابه ومرحه وسخريته رغم السنين الطويلة. وخصص له الملك شارل الثاني معاشاً شهريّاً، فكان يكتب إليها قائلاً: « إنهم يجعلون من واحد مثلي بطلاً مع أنني لا أستحقّ ذلك أبداً. أنا أكتفي يا صديقتي بالوجبات الخفيفة من الطعام وصحّتي لا تزال على ما يرام..»

واستمرّت مراسلاتهما بعد ذلك أكثر من عشرين عاماً كانا يشغلان بها أوقاتهما الفارغة. وقلّما جاء أحد من معارفها إلى باريس او ذهب إلى لندن إلا وكانت معه هديّة لها أو له.

وكتبت في دفتر مذكّراتها تقول:

«الأيام تمضي، مثلما يقول الساذج إيفيتو، في الحماقة والكسل. والأيام تحطّمنا وتجعلنا نضيّع الأشياء التي ارتبطت بنا. كنت أحب ألا أفكّر بذلك وأن أنسى في الغد ما حصل في اليوم الحاضر. وكل الناس

يقولون لي: إن حظك من الشكاة أقلّ من حظ غيرك. وعلى كل حال، فإن حياة كهذه تؤلمني أشد الألم.»

وشهدت موت أصدقائها الواحد تلو الآخر. وعندما تلقّت خبر موت صديقها الشاعر الكبير لافونتين، قالت: « هذا أسوأ وآلم ممّا لو متّ أنا!»

لقد أصبحت الآن أكثر انفراداً وأشدّ وحدة وخفّ طعامها، وكانت تردّد هذا القول: « أنا بحاجة إلى عزاء». لم يعد هناك ألم شخصي يعذبها، وإنما الذي كان يعذّبها هو هذا الابتعاد البطيء إلى الحياة. وبالتالي، كان موت سان أفريمون في عام 1703 في لندن، خسارة لا تقبل العزاء.

كانت تعيش وحيدة في عصر يضجّ بالثورة.

وبالطبع كان اليسوعيون والبروتستانت يحاولون، كلٌّ قدر جهده، استمالتها نحوهم، مما دفعها أن تقول مرة إلى صديقها فونتنيل:

ـ لقد علمت المصير الذي دخله جسدي. أما نفسي فلا أزال باستطاعتي أن أبيعها! وكان الأب أورليان يكتب لها، في كل فرصة تسنح، مثل هذه العبارة:

ـ « وبعد ذلك يا آنسة دي لانكلو؟ إذا كنت ما تزالين مصرة على عدم الإيمان فألقي أحمالك على الله تعالى.»

وقبل الموت بعدّة أشهر جاءها راهب «شاتونيف» وقدّم لها فرانسوا ماري آروي، وهو طفل في الثانية عشرة من عمره، ذكيّ متيقّظ، فضولي، نظم أشعاراً ويحلم أبداً بالكتابة. وهو الصبي الذي سيهزّ العروش ويزعزع أركانها، والذي سيعرف فيما بعد باسم فولتير.... وسيذكر عن نينون انطباعات مؤلمة، خلاصته أنه وجد في وجهها مثال الشيخوخة البشعة، وأن منظرها أخافه.

وها هي الآن تعيش في الجوّ الكئيب المنعزل الذي يحيط عادة بالشيوخ. والموت يهمّ بأن يسدل الستار. فماذا وراء ذلك؟ لقد عاشت حياتها وثنيّة، ولكن الموت على ذلك الدين شيء مستحيل، لأن المجتمع له نظرته الحاصلة وله شرائعه. ومع أنها لم تكن تعتقد أبداً بفائدة تعاليم الكنيسة، فقد أرادت أن تموت بسلام كأية سيدة أخرى.

وبحريّة وإرادة حرّة، دعت إليها الأب برونيه، كاهن الجوار، وتحدّثت إليه طويلاً، وسألته أن يقدّم لها ما يلزمها من ضروريات لاستقبال الله في هدوء. فعمل جهده من أجل ذلك. وإذا أحسّت نينون بدنوّ أجلها، خرجت في محفّتها إلى كنيسة القديس بطرس واعترفت هناك إلى الكاهن بجميع خطاياها.

وعند رجوعها إلى البيت شعرت بنوع من الفرح الباطني والطمأنينة الداخليّة العميقة، فابتسمت في هدوء وعذوبة.

وفي هدوء ووقار منحت نفسها للموت في 17 كانون الأول عام 1705.

وهكذا أُسدل الستار على حياة امرأة من أروع النساء العاشقات.

ولقد كان سان أفريمون هو الشخص الوحيد الذي عبّر عن شخصيّتها الحقيقية في رسالة له قبل موته، إذ قال لها:

«أنا أعتبرك أسعد مخلوقة وُلدت على الإطلاق لقد أغرم بك أنبل وأكبر السادة في المجتمع الباريسي، ومع ذلك فقد وجدت الوقت الضروري لإعطاء هذا الحب أهميّته الحقيقية بدون ربطه بالمآسي والنهايات المؤلمة. إن امرأة قبلك لم تحمل من روعة جنس النساء ما حملت أنت!»

الفهرس

أوائل الألم 5
انتظار 11
العشيق الأول 17
نينون وأمها 29
سهرة الاستعداد 37
بالمزاد 41
عند ماريون ديلورم 49
أحزان الحب 59
الأهواء 67
أحزان وأفراح 81
في باريس: أهواء جديدة 109
نينون والزنادقة 123
ضربة صاعقة 137
الحب الكبير 143
نينون في الدير 177
في مدرسة نينون 185
نينون «المرأة المتميّزة» 195
نهاية يوم جميل 203

مكسه ٢٨٧

PARIS'S LUSCIOUS

NOVEL

«أنا أعتبرك أسعد مخلوقة وُلدت على الإطلاق
لقد أغرم بك أنبل وأكبر السادة في المجتمع الباريسي،
ومع ذلك فقد وجدت الوقت الضروري لإعطاء هذا
الحب أهميّته الحقيقية بدون ربطه بالمآسي والنهايات المؤلمة.
إن امرأة قبلك لم تحمل من روعة جنس النساء ما حملت أنت!»

Designed by CMYK Studio

ISBN 978-1-988150-21-5

OPUS PUBLISHERS
56 Laurel Cres. London. Ontario. Canada
Tel: +2266783972
N6H 4W7
opuspublishers@hotmail.com

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com